رسائل الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسّي - ت ٢٤٦ هـ (٣)

الدليل الكبير

في الرّدّ على الزّنادقة والملحدين

ويليه الردّ على الملحد ومناظرته

تحقيق ودراسة
إمام حنفي عبد الله

دار الآفاق العربية

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
جميع الحقوق محفوظة
القاهرة - دد شرع محمود صعت
(من شارع الطيران) - مدينة نصر
تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ١٧٣٣ لسنة ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : 977-5727-61-8

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

منهـــج الرسـى

أخذت رسالة الدليل الكبير فى الرد على الزنادقة والملحدين والفلاسفة طابعًا حواريًا ، بين الشبهة والدليل ، والسؤال والإجابة ، والملحد والشيخ ، وهو أسلوب فلسفى قديم ، آثره الفلاسفة فى كتاباتهم سيما إذا كانوا يجادلون ويناظرون الآخر ، الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، بقصد الإقناع والوصول إلى الحقيقة .

إذًا فضل القاسم بن إبراهيم الحوار الجدلى الإقناعى على غيره ، فجاء أسلوبه سلسًا سهلاً ، يتحلى بالوضوح والبرهان ، وكلماته جزلة سهلة معبرة عن دلالاتها ، فلم نجد فى أسلوبه ولا كلماته غريبًا أو حوشيًا من القول أو غامضًا من العبارة ، وبالجملة كان أسلوبه فلسفيًا خالصًا ، لم يلجأ فيه للمناورة أو المداورة أو الأساليب المغالطية والسفسطة ، بل مال للتبسط ، فاعتمد الاستقراء إلى حد كبير ، وكانت النتيجة الكلية هى محصلة الإجابة عن أسالة الملحد .

إذا ما تعرضنا إلى ثقافة القاسم بن إبراهيم الفلسفية ، نجده على وعى ودراية كاملة بالفلسفة اليونانية القديمة على الرغم من وجوده إبان عصر الترجمة بما يعنى أنه عرفها قبل قيام المأمون بترجمة الفلسفة اليونانية ، وهضمها وصار فى طور أرقى وهو نقدها والتعرض لها بالفحص الدقيق ، خصوصًا فى جانبها الميتافيزيقى أو الغيبى الإلهى .

كما كان على دراية ومعرفة أيضا بالفلسفات الشرقية وتعرض لها بالنقد ، والفحص الدقيق فى ضوء المنهج الإسلامى القائم على توحيد الخالق .

*** حول العمل والعصر :**

ويعد عمل القاسم بن إبراهيم من الأعمال الفريدة فى عصره ، لكثرة الأدباء والمؤرخين واللغويين فى عصره ، ولم نجد من أرخ للمعارك الفلسفية والجدلية بين

المسلمين وغيرهم ، وهى من أهم ثقافات ذلك العصر الذى عاش فيه ، فمثلاً نجد من يؤرخ للفرق الإسلامية والثورات كثورة الخوارج أو الشيعة أو الزنج ، ولا يؤرخ للجدل الذى وقعت بسببه هذه الثورات فلا ندرى لمَ أهتم المؤرخون بتسجيل الحروب والمعارك السياسية ولم يولوا الفكر الباعث على هذه الأحداث قدر هذا الاهتمام ، وإذا كنا بصدد الحديث عن المناظرات بين الإسلاميين والزنادقة ، فإن الأمر يصدق إلى حد بعيد .

فلا نجد فى كتب الفرق الإسلامية متى ظهر لفظ الزندقة على وجه اليقين ، ولكن نجده بكثرة على ألسنة الشعراء ، ويقينًا لم يكن اللفظ ولا أصحابه ذا شأن فى العصر الأموى عنه فى العصر العباسى ويرجع ذلك لطبيعة العصر العباسى العلمية ، ودخول الثقافات الأخرى على الثقافة الإسلامية مما دعا لإعادة النظر فى كل شئ ، وتأثرت مناهج العلوم الإسلامية بالمناهج الوافدة بما تحمله من شك فلسفى وجدل ، كما أن الثقافة الإسلامية فى العصر الأموى كانت ذات طابع نقلى نصى ، فلم يكن هناك جدال حول النص القرآنى ، ومع احتكاك المسلمين بغيرهم واختلاطهم بالثقافات الشرقية والغربية ، بدأ علم الجدل والدفاع عن العقائد فى مقابل الآخر والذى هو صاحب السيادة فى هذا المجال .

أيضا مركزية السلطة واستبداد العرب بالحكم فى العصر الأموى ، ساعد على استقرار أو لنقل ركود الثقافة العربية ، ومع استيلاء العباسيين على الحكم وظهور حكومات فارسية أخذت تروج لأديانها ولغاتها ، فبدأ المسلمون يدافعون عن دينهم فى مواجهة المانوية والزرادشتية والمز‌دكية ، وكذلك الزنادقة والفلاسفة .

ولم تكن المواجهة مع الآخر فكرية فقط ، ولكن اتخذت طا‌بعًا سياسيًا فكان للمهدى دور بارز فى قمع الزنادقة والتنكيل بهم ، واستحدث وظيفة فى جهاز الحكم جديدة ، وهى صاحب الزنادقة يتعقبهم فى كل مكان .

ويذكر الطبرى أن الأمر فى العصر العباسى الأول لم يكن هينًا فقد ظهرت كتب الإلحاد والزندقة من مانوية وديصانية ومرقونية وظهرت أسماء لامعة ومعروفة من أصحاب هذه المؤلفات كحماد عجرد ويحيى بن زياد ، وابن المقفع ، ويعزى للمهدى أيضا بأنه أول من أمر المتكلمين بالرد على الملاحدة والزنادقة ، إذًا لم يقتصر جهد

المهدى على إنشاء إدارة للبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم ، بل أضاف إلى ذلك هيئة علمية لمناظرتهم والتأليف والرد عليهم .

وتواصى خلفاء بنى العباسى فيما بينهم على تعقب الزنادقة فأوصى المهدى ابنه الهادى ، وكذا أوصى الهادى ابنه الرشيد ، ولم يكن المأمون بأقل حمية على الإسلام من آبائه فتعقب الزنادقة من المانوية وامتحنهم ، وكان يقتل من يثبت فى حقه الردة عن الإسلام أما محاكمة المعتصم لقائده المعروف إلافشين فمشهورة ، وقد انتهت بمقتل الأخير وصلبه .

أما مفهوم لفظ الزندقة فى العصر العباسى فقد تباين واختلف بين العلماء والعامة ، فقد أطلق العامة على كثير من الشعراء المستهترين والمجان لفظ « زنديق » ، ولم يقصدوا بذلك معناها العلمى الحقيقى وهو الكفر بالله والإلحاد فى الدين من هؤلاء مثلاً إبراهيم بن سيَّابة ، وآدم بن عمر بن عبد العزيز ، وهو من أحفاد عمر بن العزيز الخليفة الأموى الزاهد فقد عاقبه المهدى على مجونه ، وامتحنه فى زندقته فى شعره فاعترف بالأولى وأنكر الزندقة وهجر الخمر وتاب إلى الله .

وحقيقة الأمر أن طبيعة العصر وانفتاح المسلمين على غيرهم من الأمم اجتماعيًا وثقافيًا وكذلك اقتصاديًا قد أدى لدخول الناس فى دين الله أفواجًا ، واختلفت مقاصد المسلمين الجدد بين صادق فى إيمانه ومدع فيه ، وجاء خطأ الجميع فى النظر والفهم ، ليصب تيارًا عاتيًا من الأفكار التى تأثر بها الإسلام تأثرًا شديدًا عقيدة وفكرًا وتطبيقًا ، ولذلك كان من الطبيعى أن يظهر المتكلمون الكبار لمواجهة هذه التيارات العاتية الطارئة على الدين .

وقد شط بشعراء العصر العباسى ، وكثير منهم غير عرب ، الهوى والمجون ، فقد تذندقوا من غير إلحاد ، وتناولوا الدين وفرائضه فى شعرهم ، إلا ما كان من بشار بن برد عن قصد وتعمد فذم العرب ومدح العجم وذم رسول العرب ، وأنكر البعث والنشور والجزاء ، وسخر من فروض الدين ، مما أوجب قتله بتهمة الردة .

ولكن الحق يملى علينا القول بأن المجون غلب الشعراء ، ولم يقصد أكثرهم الإلحاد والكفر ، وإن كانت تبدأ بالاستخفاف بالدين فى ليالى المجون وحول موائد الخمر وتنتهى بخلع رداء الدين والخروج منه ! .

أما الزندقة بمفهومها الخاص ، فقد ظهر فى العصر العباسى مؤمنون فى الظاهر كفار فى الباطن ، فطرق الزنادقة باب الدين والأدب والعلم والفلسفة لينفثوا سمومهم ، فعملو بشكل جماعى وفردى ، ولذلك صعب القضاء عليهم تماماً ، وتعددت الأغراض من إيمان المجوس والمانوية ، فآمن بعضهم لغرض دنيوى ولتحصيل الغنى ، وآمن آخرون لإفساد العقيدة من الداخل ، كطابور خامس ، بعد عجزهم عن حربها فى الميادين العسكرية والمواجهة والقتال .

وبدا واضحاً أثر المواجهة الثقافية فى مجال الحديث النبوى ، والذى تعرض لهجمات شرسة من أعداء الإسلام فتناول الزنادقة الحديث بالإفساد والوضع لإفساد العقيدة وزعزعة المسلمين عن دينهم ، لأنه يضرب الأساس الثانى من التشريع فلا يستقر للمسلمين أمر ، وكيف يطمئنون لدين أسسه غير موثوق بها ؟!

وإذاً قد تجرأ المجوس والملاحدة على حرب الإسلام ليس فى مجال الأدب فقط كما فعل صالح بن عبد القدوس وألف كتابا يسمى « الشكوك » ويونس بن أبى فروة ، ولكن تطرق حربهم إلى علوم الدين ، واعتمدوا فى أحيان كثيرة أسلوب التقية والمراوغة ، وكذلك اتخذوا من سياسة الدولة شركاً للإيقاع بالمسلمين فى براثن الزندقة .

وهكذا عنى المسلمون فى هذا العصر ، بالزندقة أيضا معنى الإلحاد والدهرية ، وكان أغلب الزنادقة والملحدين من غير العرب لتأثرهم بثقافاتهم السابقة على الإسلام وبيئاتهم التى نشأوا فيها وتربوا عليها .

ولذلك نقول إن رد المسلمين على الزنادقة والملاحدة أمر طبيعى وقد سجلت كتب الفهارس وغيرها أسماء لامعة فى هذا المجال كأمثال واصل بن عطاء (فى الرد على المانوية) ، وأبى على الجبائى فى « الرد على أهل النجوم » و « المشبهة » ، أما أبو الهذيل العلاف فقد ألف ستين كتاباً فى الرد على المخالفين ، ومحمد بن شجاع الثلجى « فى الرد على المشبهة » .

كمت رد المتكلمون على أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى فنجد لأبى على الجبائى كتابا فى الرد على اليهود والنصارى . حتى الخليفة المأمون عليهما بنفسه فى رسالة له .

ومن هنا تتجلى أهمية كتاب القاسم بن إبراهيم فى الرد على الزنادقة والملحدين والفلاسفة ، فى ثقافة المواجهة والرد على الآخر ، ومحاورته دفاعًا عن الدين ، وإيضاحًا لحجج المخالفين ، وإيضاحًا لحجج المخالفين ، وتحقيقًا لمبدأ الجهاد فى سبيل الله علميًا ، وهو أحد مهام علم أصول الدين يقول الغزالى إن مهمة علم الكلام « حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة » [١] أما ابن خلدون فيضع تعريفًا أقوى من هذا التعريف فيقول : « علم « الكلام » علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » [٢] .

وجاء الجرجانى فعرفه تعريفًا جامعًا يشمل الكفار والمبتدعة : « علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام » [٣] ، والقيد الأخير لإخراج العلم الإلهى للفلاسفة إذ أنهم يعتمدون التفكير الحر بلا قواعد وضوابط مسبقة .

وهكذا نجد رسالة القاسم فى الدفاع عن الدين فى مواجهة المخالفين ، اعتمد فيها على المنهج الفكرى الإسلامى القائم على الكتاب والسنة ، وصريح العقل بعيدًا عن المنهج الفلسفى اليونانى ، مع علمه به ، وآمن بان صحيح المنقول لا يتعارض مع صريح المعقول إن سلمت العقول من التشويش والخلط ، وسلمت النوايا فى الاستقبال والفهم .

*** طريقة الرسى فى تناول قضايا الرسالة :-**

اعتمد القاسم على دليل الصنعة والإحكام والإتقان فى الخلق فى استدلاله على الخالق وجودًا وتوحيدًا بالأدلة القرآنية والعقلية ، وحقيقة قدم مفهومًا جيدًا محصلته أن كل عقلى هو نقلى والعكس صحيح ولا انفصال عن الدليلين وكلاهما يعاضد الآخر .

ثم نقد المنهج اليونانى فى تصوره لإدراك النفس ، وبين أن ذات الخالق مفارقة

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ، ص ٣٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ٣ / ٣٥ بتحقيق على عبد الواحد وافى ، لجنة البيان العربى .

(٣) الجرجانى : التعريفات ، ص ٢١٢ .

لغيرها من الذوات ، وأن ما يعقل أو يدرك بالحس أو البرهان العقلى ، كذات ، أو بأحدهما فالله خلافه ، فيقول : (لابد من النظر لمن أراد يقين المعرفة بالله فى تصحيح كل ما وصفناه صفة ، وتعد صفة فى معرفة الله ، لتأتى المعرفة بالله من بابها ، ولنسلم بذلك من شكوك النفس ..) .

فيرى أن المعرفة بالله تحتاج إلى منهج يفضى إلى اليقين ، والإدراك الحسى أو النفسى غير كافيين فى هذا الصدد ، : (ففاسد أن يكون الله ، سبحانه ؛ بواحد منهما مدركًا أو معروفًا) والنفوس تتباين وغير معقول أن يكون الحق إحداها (وكل نفس فذات قوى شتى مختلفة ، كل صفة فيها فسوى غيرها من كل صفة ، واختلاف كل نفس ، فمعروف غير منكر ، منها التوهم والفكر ، وغيرهما من التذكر والخطر) .

فيتعرض للإدراك النفسى ويبين حقيقة وماهيته ، وكما أنه لا يدرك ، تعالى ، بهذه الطريقة ، فإنه لا يدرك بالوهم أو بالتشبه بالأجسام ، أو الظن ، أو بالدلالة على موجود مشاهد ، وكذلك لا يدرك بحال واحدة مما سبق ، أو بكلها ، كما أنه لا يدرك بكونه خلاف الأشياء كلها ، فالله لا يدرك بما يدرك به خلقه .

وينفى أن يكون خلاف الموجودات هو العدم لكونه : (خلاف الوهم لا فى حقيقة العدم موجودة ، ولا عين منه قائمة ولا محدودة ، وإنما يطلب خلاف الأشياء كلها فى حقائق الأعيان ، بما يدرك من العقل والعلم من الاختلاف بيقين الإيقان » .

ثم يبين أن الخلاف المتبقى بين ما يحس ويعقل ، والقرآن الكريم قدم الأدلة القائمة والشهادة القاطعة على وجوده ، فى الأنفس والآفاق ، والأرض والسماء وما بينهما ، كل شئ شاهد على العلم به ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١) .

واستعرض القاسم العديد من الشواهد والأدلة القرآنية على وجود الله فى الأنفس كدليل الخلق والنطفة ، وكذلك خلق الجماد والنبات ، واختلاف وتبيان المخلوقات النباتية ، وخلق الحى من الميت والميت من الحى .

وقدم القاسم تحليلاً رائعًا للآيات الدالة على وجود الله وعظمة خلقه للأكوان ،

---

(١) سورة فصلت : آية ٥٣ .

ويصدق ذلك على تفسيره وتناوله لآيات سورة الواقعة ، ولفت الأنظار إلى حجاج القرآن العقلى الجدلى للكفار حين يسألهم : ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) ﴾ [١] مبينًا أن الكفار لم يسعهم أمام قدرة وعظمة الخلق إلا أن يثبوا الخالق .

كما أنه وقف مع القرآن الكريم فى تطور خلق الإنسان وكذلك تطور أحواله بعد خروجه إلى الحياة حتى موته ، مشيراً إلى أن ذلك كله يدل على الخالق الواهب للحياة وراعيها ، حتى تطرق إلى الأنسجة الحية فى نموها وحياتها وموتها .

وآية الله فى خلق البحار وما فيها ، وكيف هى آية مبهرة معجزة ، والفلك التى تجرى فيها آية أخرى ، وخلق الليل والنهار ، والنجوم فى السماء ، والفلك والمجرات العظيمة ، : (فصدق الله ، تبارك وتعالى ؛ ذو الملك والقدرة ، والأمثال العلى ، أنه لهو الله ربنا ، ومنًا منه كان خلقنا وتركيبنا له الملك ومنه عجيب التدبير) .

ومن أروع ما قدمه تحليله لآيات خلق العالم والكون ، وكيف فتق الله السماوات والأرض ، وهو بصدد استدلاله على الخالق بشواهد خلقه من الإتقان والحكمة .. سورة الأنبياء / ٣٠ - ٣٣ .

ثم تعرض لدليل خلق الماء والجبال ، وتناول مبحثًا فيزيقيًا فى خلق الأرض ، وهل هى كرة أم لا ؟ وفى كونها ، هل هى فضاء أو فى ماء أو هواء ؟ وتعرض لأدلة المخالفين بالنقد وسخر من التصورات الخرافية والساذجة بما يدل على أن هذا المبحث لو مضى فيه المسلمون لمنتهاه لبلغوا شأواً عظيمًا .

ثم يتساءل : (فأين خالق الإبل وصانعها وممسك السماء ورافعها ... ويجيب : ذلك الله رب العالمين ، ويقدم على فكرة القرآن فى مقارنته تعالى ، من حيث الخلق بين الإنسان والسموات ، وبيانه أن الإنسان مع هوانه وضعفه يكفر ويجحد الخالق ، والسموات مع عظمة كونها تؤمن وتخضع لخالقها !

ويقول القاسم : (فلابد فى حس ولا عقل ، ولا عند مضرورٍ بخبل ، لكل بناء من بان ، غاب أو حضر من بناه ..) .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٨٤ - ٨٥ .

وبيّن منهج القرآن فى جدال الكفار والمشركين من الصابئة وعبدة النجوم والكواكب ، على لسان إبراهيم ، عليه السلام ، وحجاجة لهم فى منهج استقرائى رائع على وجود الخالق ووحدانيته وكونه الأحق بالعبادة والخضوع والتسليم : (.. الحمد لله على ما أبان من برهانه وحجته ؛ لإبراهيم ؛ صلى الله عليه : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] .

وينتهى القاسم إلى أن دليل الصنعة والخلق ، والنظر فى النفس والأكوان كان منهج الرسل والأنبياء ، عليهم السلام ؛ فهكذا كان إبراهيم ونوح ويوسف وموسى ، وينجح فى تحريك الأدلة نحو الوحدانية وعبادة الله الواحد ، وأن هذا مما تقبله العقول وترتضيه الفطر السليمة ، فالتأمل والنظر مما ميز الله به الإنسان على الحيوان ، وجميع رسل الله وفوا بهذا الدور فى سبيل تدليلهم على وجود الله ووحدانيته . انظر قوله ، تعالى ، فى سورة إبراهيم الآيتان ٩ - ١٠ .

ويعلق على كل هذا الآيات المبهرة فيقول : « فصدق الله لا شريك له ، فى أن من لم يعرف عقله هذا ، وعقله صنعًا له وخلقًا وحقًا يقينًا صدقًا ، فهو فى أبين الضلال وأخبل صاغر الخبال ، والحمد لله كثيرًا ، رب العالمين ، على ما أبان من حججه على الملحدين » .. « وكيف يشك ملحد فى صنع الله للأشياء كلها ، أو فيما يرى من دقة الأشياء أوجهلا ، وقد يرى كيف أحكمت فاستحكمت وانقادت للصنعة فتقوّمت .. »!

ويتطرق القاسم بعد ذلك إلى صفات الله تعالى ، فهو غنى غير محتاج ، واحد أحد فرد صمد ، وعظيم عليم ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑪ ﴾ [2] وما ليس كمثله شئ فهو خلاف لكل شئ » .

وقد عرفنا الله عليه بالتوفيق منه لنا والهداية واللطف . وبين أنه منزه عن كل تجسيم أو تشبيه ، ورد على الحشوية والمشبهة والمجسمة فى تصوراتهم للألهية الساذجة ..

وإذا كان هناك من الفلاسفة من أنكر وجود الله والبعث والنشور ، فإن من المسلمين

---

(١) سورة الأنعام : آية ٨٣ .

(٢) سورة الشورى : آية ١١ .

من تشوش مفهومه للعدل الإلهى ، وهو مرتبط ارتباطًا وثيقًا بقضية التوحيد ، وكما احتاج الأمر فى التوحيد إلى تنزيه الخالق من تصورات وأوهام باطلة لا تليق إلا بما يدرك أو يتصور من الأجسام والأعراض والأكوان ، فإن الإلهية أيضا تحتاج إلى البراءة من مثل هذه الأوهام فى العدل ، وقضية العدل عند القاسم ترتكز على حكمة الله وعدله وما يليق بحكمه فى خلقه .

فالله ، عز وجل ، الذى أنزل الحق والميزان ليكون الحكم بين الناس بالعدل والقسط أحق بهذا التصور ، وبكل كمال من خلقه ، وهو يمتدح بكمالات ما يمتدح به خلقه ، ولا يتصور أن يكون خلقه عدول وهو غير عادل ، كما لا يتصور أن يكون الحق والعدل والواجب والخير بمفهومين مختلفين بين الله وخلقه كما يقول البعض ، أو أن يظلم عباده ولا يكون ظلمه لهم ظلمًا . . وهذا تصور لا يليق بالله ، مع أن بعض المسلمين أجاز مثل هذا التصور الموهوم المرفوض فى كل العقول على الله ، حيث قالوا بأن ما يقبح من الخلق لا يقبح من الله ، وما هو ظلم فى حق العباد ليس ظلمًا فى فعل الله وأمره!

وبصدد الأصل الثالث من أصول الزيدية والمعتزلة ، بين القاسم أن الله لا يخلف وعداً أو وعيداً : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ [1] وأنه ، تعالى ، لا يخلف الميعاد . وهذا الأصل جاء فى مواجهة تصور آخر غريب على الإسلام يقول بأن لله أن يدخل العصاة والكفار الجنة ، والمؤمنين النار ، أو يخرج الأولين ويدخلهم الجنة ، كل ذلك بلا جناية من المطيعين أو طاعة من المسيئين ! . . فى كلام باطل ، وتصور قبيح لا يليق بذات المخلوقين فضلاً عن ذات الخالق !

ثم عاد ثانية فتحدث عن قضية الجبر والاختيار فى حق الخلق ، وأثبت أن الإنسان مخير حر فى أفعاله وهو أصل من أصول التكليف من غيره يبطل ويصير الوحى والنبوات والرسالة والأوامر والنواهى . . . باطلة لا معنى لها .

ثم توجه لولده ، الذى كتب هذه الرسالة إرشاداً له ، فى مناظرة الملحدين والزنادقة والفلاسفة الدهريين ، ناصحًا له بالتمسك بالتقوى والعمل الصالح ، حتى ينال لطف

---

(١) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ – ٨ .

الله وهداياته التى تعينه على قضية الإيمان والعمل بمقتضياتها ، فكما أن الفرق يلحق الليل والنهار ، والظلمات والنور ، والعالم والجاهل ، والمهتدى والكفار المعاند ، كذلك يلحق من علم فعمل بما علم ، ومن علم فعصى واستكبر ، وهو أمرلا يتحقق إلا بالتقوى وموالاة المؤمنين أهل الطاعة والخشية .

والمؤمن العامل بما آمن به محققًا لتصور العبودية فى الأرض ، أوعى لإيمان الملحد بالله مستدلاً على صدق المؤمن بفعله ما أمر به ، ويخرج من ذلك لبيان أن القبح والحسن عقليان ، وأن أرباب الحكمة مامورون شرعًا بالإيمان والإقرار بمعرفة الله بعد النظر والاستدلال عقلاً ، وبيان حال وهيئة وصفة من جهل الصانع : (أما رأيت العامة لما هى فيه من الجهل بالله الأعلى ، إذذ جهلت ما قلنا مما كثر الله على معرفته الأدلاء ، كيف قلت بحقائق الأمور علومها ، وضلت بعد جهلها بمعرفته حلومها ، فقالت فى دينها بكل قول متناقض مذموم . .) . فمن جهل الله تعالى تخبط فى الأوهام الباطلة والتصورات الخرافية المحيرة .

أما معصية إبليس فقد كانت منه ، ولو أطاع وتاب لقبل الله منه توبته وطاعته ، ثم تطرق القاسم لصفات المؤمن ، وحقيقة الإيمان ، وصفات أهل الجنة وصفات أهل النار .

وعند هذه النقطة الفاصلة تناول القاسم المرجئة بالنقد ، وتعرض لمفهوم الإيمان عندهم : (الله لا يعذب من أقرَ به وبرسله وكتبه بلسانه ، وإن ارتكب كل كبيرة من كبائر عصيانه) وأنه لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة ! . . وبين أهمية العمل بالنسبة للإيمان ، وهو ما اتفق عليه جمهور المسلمين .

وتناول مفهوم الحق والباطل وأقسامهما والولاء والبراء ، وأثر تصور المجبرة للعدل الإلهى فى إلحاق كل نقيصة بخالقهم ، وينتهى إلى أن من كفر وعاند الحقيقة والفطرة والبراهين والاستدلالات العقلية ، خسر نفسه ولم يربحها وعاند نفسه لا غيره ، حتى إن فرعون نفسه لم يكن كافرًا بحقيقة الإلهية ، ولم ينادِ على نفسه بها على وجه الحقيقة ، إذ ليس فى مخلوق ، مهما كان شانه ، جراة على فعل مثل هذا ، إلا أنه قال لقومه أنه إلههم ، أى سيدهم وحسب . . ولم يتجاسر على ما يعتقده بعض الناس من أنه نادى على نفسه بالألهية ، ويذكر بأدلة الله فى كل شئ وآيات صنعه لها على حقيقة ذاته تعالى .

ثانيًا : فى الرد على الملحد ومناظرته له

نزل القاسم إلى مصر هاربًا من تعقب السلطة له ، وخوفًا من بطشهم ، وفى مصر وجد أهلها يحبون آل البيت حبًا شديدًا ، ففتحوا بيوتهم له ، وأخفوه من أنظار السلطة والعسكر ، ومع ذلك لم يكن غائبًا عما يحدث فى الحياة العامة ولا فى مجالس الحكام والعلماء ، وما ينزل ويحل فى العامة من حوادث ، وما يجد فى الحياة من حوله .

وكاثر من آثار تسامح المسلمين حكامًا وشعبًا مع غيرهم من أهل الذمة والكفار والملحدين والمجوس والمانوية والثنوية وغيرهم ، بدأ هؤلاء فى غزو الحياة الثقافية الإسلامية ، كما أشرنا من قبل ، يناظرون العلماء ويتحرشون بالعامة ، بغية هزيمة الإسلام فكريًا بعد أن هزمهم عسكريا واجتماعيا .

وسمع القاسم بما أنزل أحد الملحدين بجمهور العلماء فى مصر من نكبة عرفها العامة والخاصة وسار بذكرها الركبان ، وهو فى إحدى دور المصريين متخفيًا ، فلم يطق ما حل بالمسلمين ونزل بالعلماء ، واقترح على صاحب الدار و أن يدبر له مع هذا الملحد لقاء ومناظرة ، ينازله فيها وينتصف للإسلام وأهله منه .

ويلتقيا ويتفقا على الحوار والمجادلة على شرط النصفة والجدال بالتى هى أحسن ، والتسليم بالضرورات والبراهين العقلية وعدم مكابرة أدلة العقول .

فيسأله الملحد عن الأدلة التى يعتمد عليها فى إثبات الصانع ويجيبه القاسم أدلة قرآنية ، رغم أنهما اتفقا على أن الأدلة تكون من المعقولات ، مما يدل على أن القاسم يرى أن النص القرآنى من المعقول .

ثم انطلق من النص (سورة الحج الآيات ٥ - ٧) إلى مناقشة كون النطفة جسم ، والجسم مكون من عرض وجوهر ، وهو محدث ، وكل محدث يحتاج إلى محدث قديم ، وهو الله ، الذى يخالف الأكوان ولا يشبهها فى شئ منها ، وإلا كان مثلها ، ودليل القديم والمحدث مشهور ومعروف عند المتكلمين (١) .

---

(١) انظر الجوينى : الإرشاد ؛ ص ٢٨ ، وشرح العقائد النسفية ١ / ٨٢ .

وكـذلك تطرق إلى دليل الموجـود والمعـدوم ، أو الممكن والواجب ، وهو دليل فلسفى معروف هو الآخر [١] ، ويقوم على فكرة أن العالم جائز الوجود ولذلك فهو محدث ، والله ، عز وجل ، واجب الوجود ولذلك فهو قديم .

وهذا يدل على تمكن القاسم من معرفة الفلسفة القديمة وهضمه لها هضما جيداً ، وأن كثيراً من أدلتهم فى الميتافيزيقا وإثبات الغيبيات دخلت العالم الإسلامى وعرفها وأعاد صياغتها مرة أخرى فى إطار المنهج الإسلامى .

ويعترض عليه الملحد بأن فريقًا من الفلاسفة لا يرى حدوث الأعراض = الأحوال عنده فى الرسالة ، ويتناول الحجاج عليه وينطلق منه إلى الحديث على الشئ ، وكون القديم شيئًا ، وشيئية المعدوم ، وهى أشياء فى صميم الجدل الإسلامى مع الآخر ، والذى فى هذه المحاورة ملحد عنيد ، وغير مسالم بالمرة ، ويتطرق القاسم إلى نفى الأعراض عن القديم وكذلك نفى التصورات السلبية عن القديم ، فهو لا شبيه له وليس من عدد ، ونقد اليونان فى تصورهم للصورة والهيولى ، وهو بذلك يسبق كثيرين من مفكرى اليونان الذين نقضوا المنطق ومنهم ابن تيمية والذى لا شك قد تأثر تأثراً كبيراً بالقاسم فى رسالته وفى غيرها ، وهو من المفكرين الإسلاميين المجددين ، والذين أنصفوا التراث الإسلامى وأعادوا له الحياة والحركة والفاعلية وامتد تأثرهم على القرون التى تلتهم فاستقبل محمد بن عبد الوهاب الحركة التجديدية عند ابن تيمية ، وانطلقت من دعوته حركة الأفغانى وغيرها فى العصر الحديث . . .

أريد أن أقول بلا استطرد إنه ينبغى تلمس الفكر الحر والتجديدى المحافظ على أصالته فى تراث فريق من الإسلاميين منهم القاسم بن إبراهيم ، وابنه يحيى بن الحسين ت ٢٩٨ هـ ، وابنه أحمد بن يحيى ت ٣٢٥ هـ .

ثم ناقش الملحد فى فكرة الكمون ، وتبعها بنقض مقالة الدهرين القائلين بأن الطبيعة خلقت نفسها بنفسها ، وناقشه فى الموجود بالقوة والموجود بالفعل عندما قال له : «إن النواة هى تمرة بالقوة الهيولية .. وهو كلام ساذج متداعى البناء ، وما كان على القاسم إلا إثبات أن حكم الأصول فى الخلق هو حكم الفروع ، وقد كان ، فاختلط على الملحد .

---

(١) انظر ابن رشد : مناهج الأدلة ، ص ١٤٤ .

ثم ذهب القاسم إلي وضع أسس للمعرفة إذا سار عليها الملحد استطاع الفهم والتمييز : (اعلم أن طرق العلم بالأشياء مختلفة ، فمنها **ما يعرف بالحس** ، ومنها **ما يعرف بالنفس** ، ومنها **ما يعرف بالعقل** ، ومنها **ما يعرف بالظن والحسبان**) وهكذا يقدم القاسم بحثا رائعًا فى المعرفة ، فى أثناء تناوله لقضية الألهية من حيث الوجود .

ثم يتناول قضية علة الكون والفساد ، وانتهى ببيان كون الله علة الأشياء وفسادها ، أى كونها وأفسدها من غير ما ضرورة ولا اضطرار .

ويقترب الملحد من محطة التسليم ، وتتكون لديه مسلمات الفهم وبديهياته على يد القاسم ، ويتزعزع طاغوت الكفر فى عقله وقلبه ، ويتوقف عنده الأمر على إثبات وحدانية الله الموجود الخالق ، ويتناول القاسم الدليل على الوحدانية من خلال المنهج القرآنى فيتسعين بدليل التمانع فى استطراد رائع يدل على قدراته الفلسفية والكلامية فى الإقناع البرهان ، ويتخذ من كلام الملحد عن وجود الخير والشر فى العلم دليلاً على الوحدانية أيضًا .

ويتسائل الملحد عن علة خلق الله للعالم ، وعلة خلقه ، فيرده القاسم إلى كون الله الواحد الأحد القديم ، غنى وقادر حكيم ، فلا شك أنه خلق العالم لغاية وعلة وسبب ، ولا يسع القاسم سوى الاستعانة بالنص ، فى كونه تعالى خلقنا من أجل الابتلاء والامتحان والاختبار الذى تتعد مراتبه ودرجاته وأنواعه ، والله فى كل ما خلق حكيم قادر ، ولم يخلق العالم لحاجة لأنه الغنى ، والقديم لا يحتاج ، ولا يسأله عن علة خلقه للأشياء ، لأن السؤال فى حقه ممتنع ومرفوض ، وإلا دعا إلى الدور .

ثم فسر بفكرة الاستحقاق والعوض وإحسان الله لعباده ، ما يحدث فى هذا العالم من الآلام ، فلحكمه رآها البارئ عذب عباده بالموت وأصاب بعضهم بالأمراض والابتلاء فى البدن والمال والأولاد لداعية الإحسان عليهم بعد ذلك ، ولكن ما الذى يبرر أنها إحسانٌ ، ولم غضب عباده على ابتلاءات هو أرادها لهم ، وما وجه الإحسان فى علمه تعالى بمصائر عباده وجهلهم بها ، ولمَ جعل بعض عباده أغنياء وبعضهم فقراء ، بعضهم فى نعمة وسرور ، وآخرون فى شر وغم ؟ .. كل هذه

تساؤلات وجه مثلها وقريب منها الملحد ليتسنى له فهم ما يفعله الله بعباده .. أى ما الذى يعلل أفعاله .

ثم أعقب ذلك بالحديث عن الرسالة والنبوات ، وهل ما جاء به الأنبياء معقولاً أم لا ، أو هل تعقل الشرائع وتعلل أم لا ؟.. وما المعجزات وكيف تكون ؟ .. لم يهدم الله بنية هو صانعها .. ولماذا خلق البعث والنشور ، وما الدليل عليه وكيف يكون ؟

وقد رد القاسم على تساؤلات الملحد بالأدلة الشافية الكافية من المنقول والمعقول وسار به سيراً حميداً بلا لبس أو غموض ، حتى انتهى به الأمر أن يسلم وينطق بالشهادتين على إثر هذه المناظرة ، مما يعنى أنها حققت أهدافها كاملة وتكلل جهد القاسم بالنجاح عندما توفر عنده المنهج السليم ، والعلم الذى صدق قواعد منهجه ، وسبق كل ذلك نية صالحة فى هداية الخلق والدفاع عن الشرع والدين ، ونعجب أشد العجب عندما نعلم أنه كان يجادل عن دينه وينصره وهو مطارد غريب شريد بعيد عن الأمن بين الأهل والأوطان !

وصدق الله العظيم ، إذ يقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [1] ، ويقول ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ؟! ﴾ [2] ، ويقول : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [3] .

ويبدو أن حركية الإسلام وسره الفاعل فى أتباعه ما زال يسرى روحًا نابضة حية ، فنجد المجاهد البوسناوى المعروف على عزت باجوفتش يؤلف كتابًا بسميه « الإسلام » يدافع فيه عن عقائد الإسلام فى محاوراته مع الملحدين من أبناء الشيوعية فى الغرب ، ونجد رجاء جارودى المهتدى الفرنسى الذى ملأ المكتبة الإسلامية ، بكثير من الأفكار ، التى كانت فى حاجة إليها فى مواجهة القوة العاتية للآخر الذى لم ير أمامه سوى الإسلام عدواً يحاربه بكل ما أوتى من قوة مادية ومعنوية ، نجد هذا المهتدى يواجه الشيوعية مرة والصهيونية العالمية مرة أخرى ، ثم ينتقل بالمواجهة إلى تحدى

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٦٩ .

(٢) سورة الزمر : آية ٩ .

(٣) سورة المجادلة : آية ١١ .

النموذج الغربى مبشراً ببزوغ فجر الإسلام من جديد واندحار هذه الحضارة المادية الغاشمة وآلاتها بكل ما فيها من غطرسة ، وما أريد قوله إن هؤلاء أبناء شرعيين لأمثال القاسم بن إبراهيم من علماء السلف .. وياليت المحققين يدركون أهمية بعث التراث الفكرى للأمة عند شروعهم فى العمل حتى يأتى بعث أمتنا قويًا بناء قادراً على المواجهة وأيضًا محاكيًا حضارة العصر ، ثم يصير نموذجًا يحتذى من بعد ؛ هذا والله يقول الحق وهو يهدى إلى سواء السبيل .

* * *

فى وصف المخطوطتين

أولاً : فى وصف مخطوطة الدليل الكبير :

تعد هذه المخطوطة من نفائس مكتبة الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسى ت ٢٨٦هـ .

والمخطوط موجود بالمكتبة المتوكلية اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ١٦٧ علم الكلام ، وقد صورتها البعثة المصرية بالميكروفيلم ضمن المخطوطات التى صورتها فى السنوات ١٩٥٢ ، و١٩٦٤ م .

وهو كتاب فى الرد على الزنادقة والملحدين والفلاسفة ، فيما يسألون عنه من الدليل على رب العالمين .

ولا يوجد على المخطوط أى إشارة لسنة نسخها ، غير أنه مكتوب عليها ، خط قديم ، ومن خلال خبرتى بالمخطوطات أعتقدُ أنها كتبت فيما بين القرن الرابع أو الخامس الهجرى على الأكثر ، وهو ما يوافق إلي حد ما رأى البعثة المصورة ، التى أرجعت النسخ إلى عصر المؤلف (أى القرن الثالث الهجرى) أو قريب منه ،.

- عدد أوراقها ١٧ ورقة .
- ومسطرتها ٢٥ x١٥سم .
- وهى مصورة من مجموع الإمام القاسم من ورقة ١ - ١٧ .
- رقم الميكروفيلم بدار الكتب المصرية ٢٣٩ .

جاء على صفحة الغلاف ما يلى :

١٦٧ / وقف - كتاب مجموع من كتب الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، صلوات الله عليه ، وعلى آبائه الطاهرين الأخيار الصادقين .

ثم تسمية ما فى هذا الكتاب ، أى المجموع ، من الكتب أولها :

١- كتاب الدليل الكبير (الذى نحن بصدده) .

٢- وكتاب تثبيت الإمامة .

٣- وكتاب الرد على النصارى .

٤- وكتاب المكنون والحجة .

٥- وكتاب الرد على ابن المقفع .

٦- وكتاب المسترشد .

وموعظة أولها : أما بعد ؛ فإن الدنيا دار غرور . .

٧- وكتاب الرد على الملحد وجواب مسئلة الطبريين .

٨- وكتاب سياسة النفس .

٩- وكتاب الإمامة .

١٠- ورسالة إلى بعض بنى عمه .

١١- وكتاب صفة العرش والكرسى .

١٢- وكتاب القتل والقتال .

١٣- وكتاب الرد على الروافض .

١٤- وكتاب الرد على الرافضة .

١٥- وكتاب أصول العدل والتوحيد . وستة فصول من كلامه أيضاً .

١٦- وكتاب الهجرة .

١٧- وكتاب العدل والتوحيد .

١٨- وكتاب الرد على المجبرة .

١٩- وكتاب مديح القرآن الكبير .

٢٠- ومديح القرآن الصغير .

٢١- وكتاب الدليل الصغير .

٢٢- وكتاب الناسخ والمنسوخ .

كتب للشيخ الأوحد معىّ بن جنات بن يوسف الحجورى نفعه الله بالعلم ، وأيده بالحلم ، وصلى (الله على) محمد النبى وآله الطيبين

وشغلت بقية الصفحة بكثير من التملكات لجهات مختلفة - منها أمراء ورثوا المجموع أو أوصوا به ، وعامة ، وأختام المتوكلية ، وكذلك أمر أمير المؤمنين المتوكل بإيداع هذا المخطوط - المجموع - بالمكتبة المتوكلية .

ثانيًا : وصف مخطوط الرد على الملحد ومناظرته له عليه السلام .

- جاء فى صدر المصورة ما يلى : هو كتاب رد فيه على رجل من أرباب النظر من الملحدة ، وكان يغشى مجامع المسلمين ويورد عليهم الأسئلة الصعبة ، فى قدم العالم وغير ذلك ، حتى وافاه المؤلف وأجابه على ما عنده من المشكلات فوضح له الحق وتاب إلى الله.

- تاريخ المخطوط / خط قديم .. وربما كتب فى القرن الثالث أو الرابع الهجرى .

- عدد الأوراق ٦ ورقات .

- القياس ٢٥ X ١٥سم .

وهذه الرسالة ضمن مجموع كتب القاسم من ورقة ٦٩ حتى ٧٣ .

- وهى إحدى مخطوطات المكتبة المتوكلية اليمنية بصنعاء تحت رقم ١٦٧ علم كلام . رقم التصوير ٢١٥ .

* * *

القاسم الرسى

هو القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الحسنى العلوى ، أو محمد ، المعروف بالرسى (١٦٩ - ٢٤٦ هـ = ٧٨٥ - ٨٦٠م) فقيه ، شاعر وإمام ثائر من أئمة الزيدية ، عاش فى عهد الدولة العباسية وعاصر الخليفة هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، وشارك فى الدعوة ا لسرية للشيعة فدعا للرضا من آل محمد ، مارس الدعوة السرية ، ثم تحول إلى الثورة والخروج بعد مقتل أخيه محمد بن إبراهيم بن طباطا ١٩٩ هـ .

ودعا لنفسه وأخذ البيعة من الناس والتف من حوله الجميع ، وكانوا يعدونه نجم آل محمد ، واتصف بالجود والزهد ، واختفى فى مصر مدة عشر سنوات ثم خرج إلى الحجاز واليمن ، وهناك تثار على الدولة فطاردته جنودها ، فعاد للاختفاء مرة أخرى فى البادية .

واستمر مختفيًا مدة حياة المأمون ، وعاود الظهور بعد وفاته ، ولكن انتهى به الحال إلى الملامسة والموادعة فاشترى جبل الرس بالقرب من المدينة وتفرغ للدعوة السرية والتاليف وتحصيل العلم ، والحقيقة إن القاسم كان فطنًا كيسًا ولم يرد أن تنتهى حياته ككل الثوار الخارجين ، وكان مقدرًا لقدراته وامكاناته ، ولذا بقى فى الرس هناك حتى توفى ودفن .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ظ / الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على خير خلقه أجمعين سيدنا محمدٍ ، وأهل بيته الطاهرين وسلم :

قال الحسين بن القاسم : سألتُ أبى يومًا - رحمة الله عليه - عما يقال للزنادقة والملحدين ، فيما يسألون عنه ، من الدليل على الله رب العالمين ؛ تقدست أسماؤه ، وجل ثناؤه .

فقال : سألت يابنى عن أكرم مسائل السائلين ، وعن ما بجهله هلك أكثر القدماء الأولين ، فتخبط ، منهم فيه ، عمايةً من تخبط ، وأفرط بجهله فيه منهم من أفرط ، بغير ما حجة ولا برهان ، لمنكرهم فى إنكاره ، ولا عدم دليل مبين فيما هلك به من اختياره . إلا ما أتبعوا من فضل أهواء الأنفس ، وضلوا به لتقليد أسلافهم ، من غواة الجن والإنس ، وحجج الله ، تبارك وتعالى ، عليهم فى العلم به قائمة .

*** آثار الصنعة ، أو دليل الحكمة والإتقان [1] :**

فالحمد لله ، ذى الغلبة ، والسلطان القاهرة ، ولمعرفته ، والعلم به الحجة والبرهان ، من مداخلِ أبوابه ، ما أظهر فى الأشياء ، سبحانه ، من آثار الحكمة

---

(١) دليل الخلق والإبداع والإتقان ، أو التأمل فى اثار الصنعة والخلق ، هو دليل قرآنى ، اصل له المتكلمون المسلمون فى اصول الدين ، وصار اصلاً من اصول النظر والاستدلال فى إثبات الخالق ووحدانيته وفى الرد على المنكرين للالهية من الفلاسفة القدماء ، والذين يطلق عليهم بالفلاسفة الدهريين والفلاسفة الطبيعيين ، وقد استفاد المتكلمون من القاسم الرسى فى الاستدلال على الخالق ، لسبقه لهم فى هذا الطريق ، وجاء من بعده الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) والذى عاصره فكتب رسالة فى « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » وهى رسالة طبعت اكثر من مرة وحققت ، وكذلك الأشعرى (ت ٣٢٤ هـ) فى كتابه « اللمع » عندما استدل بدليل النطفة ، ص ١١ - ١٩ ، وابوبكر الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) فى كتابه « التمهيد » وهو كتاب فى الرد على فرق الملحدين وغيرهم حيث استخدم دليل الخلق والإبداع فى الاحتجاج على اهل الطباع ، وكذلك الحافظ ابو بكر البيهقى (ت ٤٥٨ هـ) فى كتابه « الاعتقاد » . عندما استدل بالأدلة القرآنية فى خلق السماوات والأرض وما فيهما من الدلائل على وجود الخالق ووحدانيته ، ص ٣٠ - ٤٣ ، وجاء الغزالى ت ٥٠٥ هـ ليكتب فى هذا المجال بإفاضة ، ويؤلف فيه رسالة على نسق ماكتب القاسم والجاحظ من قبل ويسميها : « الحكمة فى مخلوقات الله » وهى رسالة مطبوعة ومحققة ضمن مجموعة . والقصد مما سبق ان هذا الدليل إسلامى اصيل ، ونجح المسلمون فى استخدامه بطريقة بارعة ، ويرجع الفضل للأوائل منهم فى هذا الطريق وعلى راسهم صاحب هذه الرسالة الذى وظفهُ فى الرد على الزنادقة والملحدين والمعاندين .

المتقنة التى (لا) [1] تكون إلا من مؤثر متقن ، وأبانَ فى الأشياء ، سبحانه ؛ من آثار الحكمة المتقنة التى لا تكون إلا (لـ) حكيم محسن كما قال ، سبحانه : ﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾ [2] .

فكل ما ذكر الله ، سبحانه ، فجعائل لابد لها من جاعل ، وفعائل لابد لها من فاعل ، (ولا) تقوم ابداً إلا بفاعل الجعائل والفعائل فى كل معنى .

ومن أسباب العلم به ودلائله بعد الذى أبان من أثر التدبير فى جعائله أوثق وثائق الأسباب (الذى أتى به) [3] مما فطر عليه بنية (أولى) [4] الألباب من العلم . (البتّ) [5] ، واليقين المثبت ، الذى لا يعترى فيه بحقيقة شك ، ولا مرية ، ولا يعترض فيما جعل من بصائره ، شبهة مغشية ، من ان لكلّ ما أحسً أو عقل ، مما أثر ، سبحانه ، وجعل خلافٌ متيقن معلوم ، لا تدر له الحواس ولا الوهوم ، يُعقل ويُعرف بخلاف ما عقلت [6] به الأشياء وعُرفت ، فتخالفه ، ويخالفها بغير مابه فى أنفسها اختلفت [7] .

* * *

فهذان أصلان مجملان لمعرفة الله ، عز وجل ، ثابتان ، وشاهدان عدلان على العلم بالله باتّان [8] ، ولن يخلو العلم بالله ، والوصول إلى المعرفة لله ، من ان يكون مدركًا ٢ و/ بمباشرة حسٍ ، فيكون كمحسوس ، يدركُ من مباشرة نفسٍ ، فيكون كبعض ما يدرك من النفوس .

---

(١) زيادة ليست فى الأصل .

(٢) سورة السجدة : الآيات من ٦ – ٩ .

(٣) زيادة من الهامش .

(٤) ليست بالأصل .

(٥) مطموسة فى الأصل .

(٦) فى الأصل : عقله .

(٧) يعنى ذات الله تعالى أعظم منان تدرك بحس ومشاهد ، أو تدرك عن طريق الوهم والتخيل والتصور العقلى ، وكل ما يدرك بالحواس والعقل هو ما دون الله تعالى .

(٨) أى قاطعان جامعان مانعان ، لا شك فيهما .

*** فى نقد فلاسفة اليونان فى تصورهم لإدراك النفس :**

وليعلـم من وصل إليـه كـتـابنا هذا ، فى ذكـر درك النفس ، أن فـلاسـفـة الروم ، يزعـمون أن للنفس دركًا ليس بـدرك الحواس ، ولا درك الوهوم ..! ولاسيمـا عندهـم ، إذ كـانت النفسُ معراة مـن الأجـسـام ، ومبرأة ، ممـا هـى عليه ، من أوعيـة الأجـرام ، أو بدرك من وهـم جائل [1] .

١- فيكون كـمتـوهـم بالجائل ، أو يكون دركـه ، سـبحـانه ، بظنٍ ، فـيكون دركـه كالمتظنن ، الذى يصيب فيه الظن مرةً ، ويخطئُ ، ويسرعُ المتظنن فيه ويبطئ .

٢- أو يدركُ مـن دليل مبين ، فيكون مدلولاً عليه ، ثبت يقين .

٣- أو يكون مدركًا ، سبحانهُ ، مما عددنا بحالٍ واحدةٍ دون أحوالٍ .

٤- أو بما يمكنُ اجتماعه من كلِ ما وصفنا من الخلال .

٥- أو مدركًا بجميع ما قلنا ، وحدّدنا ووصفنا ، من الأمور كلها وعّددنا .

٦- أو مدركًا ، سـبحـانه ، بخلافه لكل محـسوسٍ من الأشيـاء ، ومعقولها ، فى جميع ما يدرك من فروع الأشياء ، وأصولها .

* * *

*** الله خـــلاف المخلوقـــات :**

وهذا البـــاب من خلافه ، سبحانه ، لأجزاء الأشياء كلها ، فيما يدركُ من فروع الأشياء جميعًا ، وأصولها ، فما لا يوجد أبدًا ، إلا بين الأشياء وبينه ، ولا يوصفُ بها

---

(١) ينقد القاسم الفلاسفة اليونان فى تعريفهم للنفس حيث ذهب بعضهم إلى « انها ليست بجسم ، وإنما هى جوهر بسيط محرك للبدن » ، وهو افلاطون ، وطالما انها ليست جسمًا فهى لا تدرك ، كما ان ادوات الإدراك الحسى والعقلى ليست مما تدرك به النفس الأشياء ، وإذا هى تدرك بشئ خارج ، عن ذلك ، وهو ما يرفضه القاسم ، فالإدراك إما حسى او عقلى ، او حسى عقلى معا ، وليست هناك طريق آخرى للإدراك سوى ذلك ، اما الإدراك الباطنى الإلهامى الحدسى الذى يطبع فى النفس الإنسانية فهو ظنى وغير قطعى ، وهو طريق لا يستقل بذاته عند المعرفة ، ولا يصلح ان يكون طريقا لمعرفة الله . يبقى هنا الإشارة بنقد القاسم للفلاسفة اليونان ، وهو دليل قاطع على معرفته ، ورفضه للفلسفة القديمة ، ونقده لها فى مقابل ما يملكه من معرفة إسلامية راسخة ، لها قواعدها ومفاهيمها آن ذاك ، والتى فى ضوءها رفض كون النفس جوهر ليس بجسم ، لان الأشياء إما اجسام او غير اجسام ، والاجسام هى العالم والكون بما فيه ، وكل محدث ، وغير الجسم هو الله ، والاجسام لا تدرك إلا عن طريق ادوات معرفية محددة ومقننة اثبتها الله فى النفس الإنسانية هى المدارك الحسة والعقلية، وليس غير ذلك .

أبداً غير ، سبحانه ، وهى الصفة التى لا يشاركُهُ ، سبحانه ، فيها مشاركٌ ، ولايملكها عليه تعالي مالك ، ولا يعمُ جميع الأشياء اختلاف عمومه ، ولا تصحح الألباب ، إلا لله معلومه ؛ لأنه ، وإن وقع بين الأشياء ما يقع من الاختلاف ، فلن يوجد واقعًا إلا بين ذوات الأوصاف .

وكل واحدٍ منها ، وإن خالف غيره فى صفة ، فقد يوافقه فى صفةٍ أخرى ، كان مما يعقل ، أو كان مما يلمس ، أو يرى ، فإن اختلف محسوسان من لونٍ أو طعمٍ ، أتفقا فيما لهما من حدودِ الجسم ؛ وإن اختلف معقولان فى فعالٍ أو همةٍ ، أتفقا فيما يعقل من أصولهما المتوهمة ؛ كالملائكة والإنس والشياطين ، التى أصولها فى النفسانية واحدة متفقة ، وهممها وأفعالها مختلفة مفترقة .

فهمم الملائكة الإحسان والتسبيح ، وهمم الشياطين العصيان والقبيح ، وهمم أنفس الإنس مختلفة ، كاختلافها فى قصدها وإسرافها ، فتحسن مرةً وتبرُّ ، وتسئ تارة وتسوء .

وكل خلق ، من الملائكةِ والإنس والشياطين ، فقد جعلَ الله له صفةً متممةً ذاتيةً بها ، بأن بعضهم من بعضٍ ، وكانت لكلٍ من جعلها الله له خاصية صنفيّةٌ ؛ فهى لهم ، وبينهم ، ولكلهم اختلافٌ ، وكلهم بها وبما جعل الله منها ، أصناف ، بعضهم غير بعضٍ ، كما السماءُ غير الأرضِ .

وليس من وراء ما قلنا ، فى الدرك لمعرفة الله ، والوصول إلى العلم بالله ، قولهُ ، ولا
٢ظ / بعد الذى عددنا وحدّدنا (فى) أصول المعارف بالله أصل معقول .

*** وجوب النظر لمعرفة الخالق :**

ولابد من النظر لمن أراد يقين المعرفة بالله ، فى تصحيح كل ما وصفنا (٥) صفةً ، (و) تعدّ صفةً فى معرفة الله ؛ لتأتى المعرفة بالله من بابها ؛ ولتسلم بذلك من شكوك النفس وإرتيابها ؛ فإنه لن تزكوَ نفسٌ ولن تطيبَ ، ولن يهتدى أمرؤٌ ولن يصيبَ ، اعتلج فى صدره بالله ريبُ مريبٍ ، ولا كانَ فيه لشك فى الله نصيبٌ .

فليستعنْ بالله على معرفته ويقينها ، ويرغب إليه فى يقينِ أوليائه ؛ فإن ذلك ما

لا يثبتُ لمن ادعاهُ بدعوى ، غير ذات بينةٍ ، ولا أصلٍ ، فضلاً عمن كذّبَ دعواه فى ذلك من العامة ، بسوءِ الفعلِ ، **فقال** : أعرفُ الله .

بلسانه !.. وكذّبَ ما ادعى من المعرفة له ، بكثير عصيانه .

فإذا قيل له : بمَ عرفتَ ما تزعمُ ، ومن أين علمتَ ما تقولُ إنك تعلم ؟!

قال : يا سبحان الله !.. ومن يجهل الله ، وهل يسألُ أحدٌ عن معرفة الله ؟! .

وليس عنده من وجوه المعارفِ ا، لتى عَدَدنا كلها ، وجهٌ ، ولاله فى الجهل بالله ؛ لفاحشِ عصيانه ، مثلٌ ولا شبهٌ .

يقولُ أبداً فيكذب ، ويخوضُ أبدًا ويلعبُ ، فقوله خوضٌ وزور ، وفعاله فسادٌ وبور ، لا يصدّقُ قوله بفعالٍ ، ولا يقوّمُ دعواه إلا بمحالٍ ، لا يفهمه إلا عبدٌ لبيبٌ ، ولا يصوّب مذهبه فيه مصيبٌ ، كالبهيمةِ المهملة الراتعةِ ، التي لاهمة لها إلا فى مأكلٍ أو متعةٍ .

كما قال الله ، جل جلاله عزَّ أن يحويه قول أو يناله : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ⑫ ﴾ (١) ، وقال ، سبحانه : ﴿ **أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ⑰⑨ ﴾ (٢) ، وقال ، سبحانه : ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ③ ﴾ (٣) .

فنعوذ بالله يابني من مثل حالهم ، ونرغب إليه ، فى السلامة من سوء فعالهم ، وحسبنا الله فى معرفتهِ دليلاً وداعيًا موفقًا ، سبحانه للعلم به هاديًا .

- فأول بابٍ وصنفاه لدركه ، سبحانه ، بمباشرة الحسِّ .
- والبابُ الثانى من دركهِ ، سبحانه ، بمباشرةِ النفسِ .

*** لم لا يدرك الله بالحس أو النفس ؟** (٤)

ففاسدٌ أن يكونَ الله ، سبحانه ، بواحدٍ منهما مدركًا أو معروفًا ؛ لأنه إن

---

(١) سورة محمد : آية ١٢ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٧٩ .

(٣) سورة الحجر : آية ٣ .

(٤) او اعراض الجسم والاكوان .

أدركَ ، أو عُرِفَ ، بما أدركا به أو عرفا ؛ كان بوصفهما موصوفًا ، يجرى عليه ما يجرى عليهما ، ويضافُ إليه ما يُضافُ إليهما ، من تجزئةِ الكلِّ والأبعاضِ ، وألمَّ بهما ما يلمُّ بهما ، من الآلام والأعراض ؛ لأن ما يدركُ من كل محسوسٍ - وإن كان خلافًا لما يعقلُ من النفوسِ - فلن يخلو من أن يكونَ خلطين خلطا ، فامتزجا ، فتوحدّا ، أو أخلاطًا كثيرةً غدتْ مزاجًا واحدًا ، فتبدلن عن حالهن الأولى ، وصرن كونًا من الأكوان ، التى تبلى .

وما كانَ كونًا لزمهُ ما يلزمُ الأكوان ، ولم يتقدمْ الحركةَ ولا الأزمانَ ، وكانَ فيهما محظوراً ، وبما حصرهما المحدث محصوراً ، وحدث الحركةِ والزمان ، وقرائنهما من
٣ و / الجسم والصورة والمكان ، فما لا ينكرهُ إلا بمكابرةٍ لعقلهِ أو فاحشٍ مستنكرٍ من جهله ، من سلَمتْ من الخبلِ نفسُهُ ، ونجتْ من نقص الآفات حواسُهُ .

*** قــوى النفــس :**

وكلُّ نفسٍ فذاتُ قوىً شتى مختلفة ، كل صفةٍ منها ، فسوى غيرها من كل صفةٍ ، واختلافُ كلُّ نفسٍ ، فمعروفٌ غير منكرٍ ، منها التوهم والفكر ، وغيرهما من التذكرِ والخطر .

فقوى كلُّ نفسٍ ، فمتممةٌ لها ، لا يمكنُ أن تزايلها قوة من قواها المتممة ؛ لكونها وما وصفناه من حدود كمالِ شئوونها ، كان فى ذلك ، من زوالهِ ، زوالها ؛ وزال [1] عن النفس ، بزواله عنها ، كمالُها ، وفنيت النفس بفنائهِ ، ولم تبقَ النفسُ بعدَ بلائهِ .

ألا ترى أن قوى النفسِ (المتممة) [2] ؛ لكونها ومحدود كمال شئونها كحَدِّ الشمس ونورها ، وغيرهما ، مما لا قوام للشمس دونهُ من أمورها ، وكذلك قوى النارِ فى إحراقِها وحرها ، كقوى الشمس فى توهمها وذكرها .

فإن فنى نورُ الشمسِ أو حرُّها ، فنيت ، وإن بلى إسخانُ النار وإحراقها ، بليت ؛ وكذلك النفس ، إن زايلها ما جعله الله من القوى لها ، فزال فكرها عنها ، أو فنى توهمها منها ، فنيت بفنائهِ ، وبليت مع بلائه .

---

(١) فى الأصل : وزوال .

(٢) زيادة من الهامش .

وفى ذلك إذ كان كذلك ، دليلٌ مبينٌ ، وعلمٌ ثابت صحيح يقين ، بأن النفسَ كثيرة عدداً ، وأنها ليست شيئًا واحداً ، فكل نفسٍ فغيرُ واحدةٍ ؛ ولكنها كثيرة ذات عددٍ ؛ والله تبارك وتعالى ؛ فواحدٌ فرد ، وقوتهُ فمفردة ، ليس لها حدٌّ ، ومن لم يكنِ واحداً فرداً ، ونهاية فى الدرك صمداً ، كان منحازا معدوداً ، وأشتاتًا متناهياً محدوداً .

– **والباب الثالث** : من دركه ، سبحانه ، (بلغ) [1] بمحائلِ الأوهام ، ففاسدٌ بتشبيههِ فيه ، بمتوهم محائل الأجسام .

– **والباب الرابع** من دركه ؛ سبحانه ؛ بالظن : فقد يمكنُ ويكون ، إذ كانت قد تخطئُ وتصيب الظنونَ ، فصوابُ الظّنِ فى انه قد [2] يصيُب فيه ، سبحانه ، وخطأ الظّنِ فيه فمنجًا [3] عنه ، مقطوعة الأسبابِ ، فيما بينها وبينه .

– **والباب الخامس** من دركه ، سبحانه ، بالدلالة فموجودٌ لا يختفى [4] وصحيح ثابت لا يختلف .

– **والباب السادس** من دركه ، سبحانه ، بحالٍ واحدة مما عددنا ، ففاسدٌ فيه ، تبارك وتعالى ، بما أفسدنا .

– **والباب السابع** من دركه ، سبحانه ، بكل ما عددنا وحددنا من الخلال ، فاحول ما يتوهمُ من وجوه المحال ، لما يجمع مما لا يجتمع فى جنسٍ ولا عقلٍ ولا وهم ، وفى ذلك ، أن يكون كذلك ، أعدم العدم .

– **والبابُ الثامنُ** من معرفته ، سبحانه ، بخلاف الأشياء كلها .

فلبابُ كل لبابٍ ، وأصحُ ما يدركُ به ، سبحانه ، من خلقه أولو الألباب ؛ لأنه إذا صحَّ أنه غيرُ مدركٍ ، سبحانه ؛ بدركِ هذه الأشياء وأوصافها .

وكان لابد لمن أدركَ هذه الأشياء ، دركًا صحيحًا ، من أن يكون مدركًا بصحية

---

(١) زيادة بالهامش .

(٢) فى الأصل : فقد .

(٣) هكذا بالاصل .

(٤) فى الأصل : يعتفْ .

لخلافها (و) بيقين ، من دركه لها ، مثبوتٍ ، كدركِ الحياةِ ، وخلافها من الموتِ ، ٣ ظ/ ودرك الصحة ، وخلافها من السقم ، ودرك الشباب وخلافه من الهرم ، وغير ذلك من اختلاف الأشياء كلِّها ، ومايوجد لها من اختلافٍ في فرعها وأصلها .

وإذا كان ذلك كذلك ، وضح ما ذكرنا في النفوس من ذلك ، (و) كان واجبًا وجوبَ اضطرارٍ ، وثابتًا من النفوسِ في أثبتِ قرارٍ ، دركُهُ ، سبحانه ، ووجوده عند دركها ووجودها ؛ إذ هو خلاف ، سبحانه ، لكل ما يوجد من موجودها .

فإن قال قائلٌ : فلمَ لا تجعل خلاف الأشياء كلها العدم ؟!.. فقد يحيط بخلافه الأشياء كلها الوهم ، فيما قلنا .

للخلاف بين ما قد عقلنا من ذوات الأنية الموجودة [١] الثابتة بالحسِ ، أو الشهادةِ الباتَّة من درك النفس ، أو ما يدرك خلافًا لهما جميعًا ، فيوجد أثر تدبيره فيهما معًا ، فأما ماليسَ بذي أيسٍ [٢] ، ولا يدرك درك محسوسٍ ، ولا يعرفُ بفرع ولا سوسٍ ، ولا يبين عن نفسه بأثر من تدبير ، ولا يستدل على وجوده بدليل منير ، فليس فيه [٣] لنا مطلب ولا لنا بحمد الله إليه مذهب .

وإنما قولنا في العدم أنه خلافٌ في الوهم ، لا في حقيقة العدم ، موجودةٍ ، ولا عين منه قائمة ولا محدودة ، وإنما يطلبُ خلاف الأشياء كلها ، في حقائق الأعيان ، بما يدرك من العقلِ والعلم ، من الاختلاف بيقين الإيقان .

وكذلك وجدنا الاختلاف الصحيح اليقين ، يكون بين ما يحسُّ أو يعقل من الأشياء التي لها كونٌ ، فأما العدم الذي هو ليسٌ [٤] ، والذي لم يتوهم قطُّ أيسٌ ،

---

(١) في الأصل الموجود ، ويقصد بالإنية النفس المدركة .

(٢) الأيس لفظ عربي مهجور ، تقول : جئ به من أيس وليس ، أي من حيث هو وليس هو ، والأيس ضد الليس ، أولا أيس ، ومعنى لا أيس : لا وجد ولا وجود .

وقد استعمل الفلاسفة الأيس بمعنى الوجود والموجود ، والمؤيس عندهم هو الموجد ، والتأييس هو التأثير ، أو الإيجاد .

(٣) العدم ضد الوجود ، فهو نفي شئ من شأنه أن يوجد ، وليس ثمة عدم مطلق ، وإنما يضاف إلى شئ معين .

(٤) كلمة دالة على نفي الحال ، كقولنا : ليس الإنسان ملكًا ، وليس خلق الله مثله ، وتستعمل عند القدماء بمعنى العدم ، أو المعدوم ، والليسية تعني العدم ، وهذه المصطلحات واستخدامها البارع ، يدل على أن الفكر الكلامي الإسلامي كانت له مصطلحاته ، قبل اختلاطه بالفلسفة اليونانية والشرقية ، وما يفعله القاسم دليل على ذلك ، ويدل على سبقه للكندي في رسالته «الأيس والليس» في استخدام هذا المصطلح .

فليس فى بعده من أن يقال : مختلفٌ بحقيقة ، أو مؤتلف وهمٌ وليس لاحد علينا ، والحمد لله ، فى اختلافٍ منه ، ولا ائتلافٍ ، متكلمٌ . هو غير ذى شكٍ عدمٌ للإعدامِ ، ولا يرتفع عنه إلا بعبارةِ المنطق ، ينطق الكلام .

* **التأمل فى الأنفس والآفاق :**

والحمد لله ، على ما جعل لنا من السبيل ، بما قلنا وغيره ، إلى معرفته .. ودلنا عليه فى محكم القرآن ، منًّا وإحسانًا من صفته .. فقال ، **سبحانه** ، **فيما عرفنا منه ، وثبتَ لنا من أنه يُعرف بالأعلام القائمةِ الدالةِ ، والشهاداتِ القاطعةِ العادلة ، التى لم تبرح فى الأنفس والآفاقِ ، شاهدة مشهودة ، ولم تزل فى السموات والأرض وما** بينهما ، من سالفِ الأحقاب قائمة موجودة ، تشير إلى معرفته بكفٍ وبنان ، تومئُ إلى العلم بالله ، لكل من له قلبٌ وعينان ، كما قال ، سبحانه : ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾** ﴾ (٢) فمن
٤ و/ شهادته لها ؛ سبحانه ، أنه لما كان منها مُدبرٌ ، ثم قرر لنا ، سبحانه ؛ من شهادة دلائله ، بما أظهر فى السموات والأرض والأنفس ، من أثر جعائله ، بتوقيفٍ مُنبهٍ لكل بصيرٍ حيٍ ، وتعريف لا يجهل بعده ، إلا كل ضليلٍ عميٍ ، فقال ، سبحانه ؛ فى توقيفه ، وما نبه به من تعريف : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الذاريات : الآيات ٢٠ - ٢٣ .

(٢) سورة فصلت : آية ٥٣ .

(١) سورة الانعام : الآيات ٩٥ - ٩٩ .

فـفَلقَ الحبَّ ، يابنى ، والنَّوى والإصـبـاحَ ، وأخـرجَ الحىَّ من الميت ، والميت مـن الحـى ، بأوضحِ الإيضـاحِ ، ومـا جـعل من الليل سكنًا ولبـاسًا مُكنًا ، ومـن الشـمس والقمر حسبانًا معدودًا ، وماجعل فى النجوم للسارين من الهدى ، وأنشأ البشرَ من نفس واحدة ، فما لا تنكرهُ فرقةٌ ملحدةٌ ، ولا غير ملحدة .

وما استودع منهـم فى الأرحامِ والأصلاب ، وما استـقر من الماء من جو السمـاء ، ومـاأخرج بـه من كل نبـات ، وأحـيا به الأرض بعد الموات ، وما أخـرج به مِن خُضـرِ الألوان المختلفة ، وأضاف الحبـوب المتراكبـة المُتَصنَّفة ، وما أخـرج من النخل وطلعهـا وقنوانهـا الدانيـة عند ينعـهـا ، ومـا أخـرج به مـن جنات الأعناب ، ذوات الألوان ، ومـاتشابه ، أوَ لمْ ينشأ بـه من الزيتـون والرمـان ، فـمعـاينٌ كله ، بما قـال الله فـيـه ، مشهودٌ بيّنٌ فيه كله أثر صنع الله موجود ، لا يقدرُ أحد له ، بحجةٍ ، على إنكارٍ ، ولا يمتنعُ حكيمٌ ، على الله فيه ، من إقرار !

* ومن توقيفه ، سبحانه ، المكرم وتعليمه ، تبارك وتعالى ، المحكم قوله : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) ﴾ (١) وكل ما ذكر الله ، سبحانه ، من هذا كله فقد علمنا بيقين ، وأدركنا بقلب وعين ، أنهُ مرزوق غير رازقٍ ، ومخلوق ليس لنفسه بخالق ، ومملوك غير مالك من نفسه شئ ، ومخرَجٌ ومُحيًا ، غير مخرِج لنفسه ولا مُحيٍ .

وكل أمر السمـاء والأرض ، فـقـد يُعـاين مـدَبَّرًا ، غـيـر مـدبرٍ ، ويرى أثرًا ، بـأبين شـواهد التـأثير ، من مـؤثرٍ ، فلا بدَّ ، بِبَتِّ اليـقين ، من رازق ، مـا يرى من الأرزاق ،
٤ ظ / ومـدبرما يعاين من أثر التدبير فى السموات والآفاق ، وما لك ما يرى مملوكًا غير مالك ، من السمع والأبصار ، ومخرج الحى من الميت ، والميت من الحى ، مواقيت وأقدار ، ولابد من مـدبرِ الأمرِ الأعم الكلىِ ، ولن يوجد ذلك ، إلا الله الأعلى فوقَ كلِّ علىٍ .

* ومن ذلك أيضًا فـقـولـه ؛ تبـارك وتعـالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ (٢) .

---

(١) سورة يونس : الآيات ٣١ – ٣٢ .

(٢) سورة الواقعة : آية ٥٨ – ٥٩ .

فالله ، سبحانه ، هو الخالق ، ونحن الممنونَ ليس لنا فى ذلك ، غير إمناء المنى ، من صنع . ولا نقدر بعدهُ ، لما قـدّر بيننا من الموت ، على منع ، وكان منه – لامنا – كما قال ؛ سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [1] .

فَقَرَّرَ . سبحانه ، بمعلوم غير مجهولٍ ، وذكرَّ بما لا ينكرهُ سليمُ العقولِ من نشأةِ الصنع الأولى ؛ فتبارك الله العلى الأعلىٰ .

ثم قال ، سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [2] فالله ؛ سبحانه ؛ هو الزارع ، ونحن الحارثون ، ليس لنا فى الزرع سوى حرثه من جِبلِّه ، موجودة ولا معدومةٍ ، ولا نقدرُ بعد الحرثِ له ، على إنشاءٍ منه لسنبلةٍ محمودةٍ ولا مذمومةٍ ، وقدرتنا فإنما هى على الحرث والاعتمال ، وعلى خلافهما من الترك والإغفال .

* وكذلك ، فلله من القدرة بعدُ ، على إبطالِ الزرع وإبلائه ، مثل الذى كان له من القدرة قبل ، على تثميره وإنمائه ، ولايقدرُ على أمرٍ ، إلا من يقدر على خلافه ، وعلى فعل كل ما كان من نوعهِ وأصنافهِ .

فمن لم يَكُن كذلك ، وتصح صفته بذلك ، كان بريئًا من القدرة عليه ، وكان العجز فى ذلك منسوبًا إليه .

* كما قال الله ، سبحانه ؛ فى الزرعِ بعد إكماله له : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [3] .

* وكذلك إنزاب الماء ، وما يعاين من تنزيله ، من جوِّ السماء ، فلا يقدر على إعذابَ الماء وإنزاله ، إلا من يقدر على إيجابه ، وإقلاله ، كما قال ؛ سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة الواقعة : الآيات ٦٠ – ٦٢ .

(٢) سورة الواقعة : الآيتان ٦٣ – ٦٤ .

(٣) سورة الواقعة : الآيات ٦٥ – ٦٧ .

(٤) سورة الواقعة : الآيات ٦٨ – ٧٠ .

وكلُّ فعلٍ ، فرع لا يتمُّ إلا بأصلهِ ، ففاعلُ الأصلِ أولاً يفعلُ فرعَ أصلهِ ، كشجرِ النارِ ، وأصولُ الأشجار ، التى هى من الأرض والماء ، والجو والسماء ، فصنع هذه الفروع ، لمن كان له صنعُ الأصول ، ولا ينكرُ ذلك منكرٌ ، ولايدفعه إلا بمكابرة فطر العقول ، كما قال الله ، سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١) .

٥ و/ فكل مانبه به من هذا ، ودلَّ عليه فداع من معرفته ؛ سبحانه ، إلى ما دعا إليه ، ومن ذلك أيضًا فقوله ؛ تبارك وتعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢) . فإذا كانت حياة الأرض ، بعد موتها ، موجودة ، وميتتها ، التى كانت تعلم قبل حياتها ، مفقودة ، فلابد اضطراراً ثابتًا ، ويقينًا لا تدفعه النفوس باتًا ، من إثبات مميتها ومحييها ، إذ بان أثرُ تدبيره فيها ، باكثر ما يعقل من الآثار ، وأكبر ما تعرفه النفوس من الأقدار ، مما لم يُر له فى الحياة قط مؤثرٌ ، ولم يوجد له فى المدبّرين قط مدبرٌ ، إلا من يزعم أنه من الله لا منه ، ومن يقرُّ أنه من الله دونه ، مثلُ المسيح بن مريم ، وغيره ممن أعطيته من ولد آدم .

* ومن تعريفه القريب وتوقيفه العجيب قوله ، سبحانه : ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣) فلما كانت الأرض مملوكة ومن فيها ، بما تبين من أثر الملكِ عليها ، ثبت مالكها عند معاينتها ، غير مدفوعٍ ، ووُجد صانعها ، باضطرار غير مصنوع .

* ومن توقيفه أيضًا وتعريفه قوله ؛ سبحانه : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٤) . فلما وجدما وقف الله ، سبحانه ، عليه من ذلك مربوبًا ، غير ممتنع ، بما تبين فيه من شواهدِ كل مربوبٍ متخشع ، وجدَ ربها كـ نها بيقين مبتوتٍ عند وجودها ، وشهد له بالربوبية ، ما شهد بالصنع عليها من شهودِها .

ثم قال ؛ سبحانه ، لتوفيقه وتعريفه مرداً عليهم بما لا تدفعه النفوس

---

(١) سورة الواقعة : الآيات ٧١ – ٧٣ .

(٢) سورة الحديد : آية ١٧ .

(٣) سورة المؤمنون : الآيتان ٨٤ – ٨٥ .

(٤) سورة المؤمنون : آية ٨٦ .

مستشهداً : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1] .

فلما كان كل شئ ، يحسُّ بحسٍ ، أو يعقلُ - إن (لم) يكن محسوسًا - بنفسٍ في قبضةٍ محيطةٍ به ، من قدرةٍ وملكوتٍ بما لا يدفعه عن نفسه ، من بلاء أو موتٍ ، كان مليك الملكوت للأشياء كلِّها ، معلومًا باضطرار من يجير ولا يجار عليه . إذًا الملكوت كلها غير ممتنعةٍ منه بحال .

* ومما يقّظ به ؛ سبحانه ؛ لمعرفته ؛ ودل منه بأوضح دليل على ربوبيته ، وما تفرد به من صنع البدائع ، وتوجَّدَ بإ بداعه من بدع الصنائع قوله ، سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[2] .

*** دليل النطفة وأصل الإنسان :**

فلما أن كان يخلق أبينا ، الذى هو أول إنشاؤنا ؛ وهو آدم الأب المقدم ، مما ذكر الله ؛ تبارك وتعالى ؛ أنه أبتداه من التراب ، كنا مخلوقين مما خلق منه ، وإن نحن جرينا من بعد ، نطفًا فى الأصلاب .

والدليل البتُّ اليقين والشاهد العدل المبين على أن آدم ؛ عليه السلام ؛ بُدئ من التراب ، وخُلق مصير نسله ترابًا ؛ إذا بلى وفرق ، وكل مركب انتقض من الأشياء ، فعاد إلى شئٍ ، بعد تنقضهِ بالفرقةِ والبلى ، فمنه ركب وخلق ، بغيرِ شكٍّ ولا امتراء .

كالثلج والجليد ، والبَرَدِ الشديد ، الذى يعود كل واحدٍ منها ، إذا أنتقض وفرق ، ٥ ظ / إلى ما ر ـ بـ منه من الحياة وخلق .

وكمركب الأشجار والحيوان ، وغيرهما من ضروب الأغذيةِ ، التى ، تعود عند بلائها ، إلى ما ركبت منه ، من الأرضين والمياه والنيران والأهوية ، وآدم فى أنه من تراب ، وإن كان كما لاً وأبًا ، كأولاده يجرى عليه ، فى أنه من ترابٍ ، ما يجرى على أجزائهِ وأوحادهِ ، وما يعاين من معادِ أنسالهِ ، التى هى أجزاؤه من كمالهِ ، إلى الرفاةِ

---

(١) سورة المؤمنون : آية ٨٨ .

(٢) سورة فاطر : آية ١١ .

الجامدِ والتراب الهامد ، يلحق به مثله ، إذ هم جزءٌ منه ونسله ، وما لحق بالأجزاءِ من الموتِ والبلاء ، ، فلا حق ، لا محالة ، بالكمال ، والأجزاء فجارية منه على مثالٍ ، إذ كانت منه أشباهًا متماثلة ، وأمثالاً لا يجهل تماثلها[1] متعادلة .

وأما يقين خلقه إيانًا من نطفةٍ ، وماجعل منا أرواحًا ، مختلفة فى الخلقة ، غير مؤتلفةٍ ؛ فمعاينٌ فينا معلومٌ ، لا يدفعه العيان ولا الحلوم . الا ترى أن النطفة لو لم تكن لما كنت ، ولو عدمت إذًا لعدمتَ ، وما كان إذا عُدم عُدمتَ ، فمنه ، غير شكٍ ، خلقتَ وقوّمتَ .

الا ترى أن كوْن المرعى والأشجار ، مما ينزلُ الله لها من المياه والأمطار ، فإذا عُدم الماء والمطر هلك المرعى والشجر ! .. أو لا ترى أن كل ثمرةٍ ، فمن شجراتها ، فإذا عدمت الشجرات ، عدمت ثمراتُها ! ..

وما عجَّبَ الله به ، سبحانه ، فى صنعه ، فى تكثيره منه للقليل المفرد ، ونشره ، تبارك وتعالى ؛ للكثير من واحد العدد . فاعجب عجابٍ ، عجبَ له من خلقهِ أولو الألباب ، بينا نحن ترابٌ ميت ، إذ أحيانًا ، ونطفةٌ واحدةٌ إذ كثَّرنا فأثرانا ، فجعل ، سبحانه ، منا ، بنطفةٍ تمنى ، ذكرًا يعاين وأنثى ، **حكمةً منه ، سبحانه ، لا عبثًا** ، **كما** قال ، تبارك وتعالى ؛ ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)** ﴾[2] .

فصرفنا بعد خلقه ، خلقًا ترابًا ، ثم نطفةً ، ثم تارة علقًا ، تصاريف ، لا يَدَّعى على الله فيها مدعٍ دعوى ، فيعلن بدعواه فيها ، ولا يسرُّ بها نجوىً ، تبرؤًا إلى الله الخالق منها ... [3] ولا فى جميع الأشياء عنها .

وكل هذه التصاريف فلا بدلها من مُصرِّفٍ وما عُدّد من شتيتِ هذه الأصناف ، فلابد لها من مصنفٍ ، لا تدفعُ الألباب وجوده ، ولا يكذبُ إلا كاذب شهوده ، وما ذكر ، سبحانه ؛ من حمل كل أنثى ، ووضعها بعلمه ، فما لا ينكره أحدٌ ، وهبهُ الله

---

(١) فى الأصل : لماثلها .

(٢) سورة القيامة : الآيات ٣٦ – ٤٠ .

(٣) بياض فى الأصل .

حكمةً من حكمه ، وما لا يأباه إلا منقوص بعد التقرير ، إلا بمكابرة منه لعقله ، مع إلا قرار منه لنا صاغراً راغماً بمثله ، وإذا كان بمثله مقراً ، وكان بإنكاره له مكابراً ، بل يعطى .... [1] إلا مجانةً وإلعاباً ، إنما هو أصغر صُغراً ، وأيسر أضعافاً قدراً ، من حمل الأنثى ووضعها ، وتاليفُ أعضاء الولدان وجمعها ، وما فيها من حسن التصوير ، وداخل معها فى لطف التدبير ، لا يقوم معتدلاً ، ولا يبقى متصلاً ، طرفة عين ، بايقن يقين ، إلا بعلم من عليم ، وتدبيرمتقن ، من حكيم لا تَلُمُّ به سنة ولا نوم ، ولا تنازعه الأشغال ولا الهموم .

٦ و / وكذلك تعميرُ العُمُر ، وما ينقصُ له من عمره فلا يكون ابداً إلا فى كتابٍ ، إذ كانت الأيام والليالى بحسابٍ ، ولا يكون نقصُ العمر وزيادته ، إلا عن به قوامه ومادته ، ممن يدبر الأيام والليالى ، ولن يوجد ذلك إلا عن الله الكبير المتعالى ، ولن يكونَ كتاب ذلك الذى هو علمه ، على من وسع الأشياء كلها تدبيراً ، إلا خفيفاً لا يؤوده حفظه عليه ، تبارك وتعالى ، كما قال يسيراً .

*** آيات الله فى خلق الفلك والبحار وما فيها :**

ثم أخبر ، سبحانه ؛ صدقًا ، ونبأ فى كتابه حقًا ، بقدرته على أن يخلق من الأشتات المختلفة ، واحداً غير مختلفٍ فى الصنعةِ ؛ لأنه من قدر على خلق الأشتات ، من المؤتلف الذى لا يختلف ، قدر على خلق الواحد المشتبه ، من الأشتات التى لا تأتلف ، كخلقه ، سبحانه ؛ لأحد ان ما خلق ، من الدر والجمان [2] ، من مختلف البحار وأشتاتها ، بأبين اختلافٍ ، من أجاجها وفراتها ، فجعل ، سبحانه ، منها مع خلافه بينها ، لحماً واحداً مشتبهاً طريًا ، ولباساً واحداً من الدرحسناً بهيًا ! . .

وحمل ، سبحانه ، على ظهورها ، مع خلافه بينها فى أمورها ، الفلك المشحون السائر ، وردِّها بعد التفريغ فيه مواخر ، ليعلمَ من عَجَبِ تدبير أمرها واختلاف الحال فى مسيرها ، إذ تسير بحاليها شاحنةً مالية ، كما تسير مواخرِخالية ، وإذ تسير

(١) مبهمة فى الأصل .

(٢) فى الأصل : اللجمان .

بحاليها فى أجاج البحار ، كما تسير بهما ، فى فراتِ الأنهار ؛ إنَّ لها لمسّيراً لا تختَلفُ في قوته الأشياء ، ومدبراً قويًا لا يَساويه الأقوياء .

وإن تسييرها ، مقبلةً ومدبرةً وشاحنةً ، في البحرين ، وماخرةً إلى من يدبر ما سارات به من مختلفِ الرياح المسَّيرات ، ومن له مِلك ما جرت فيه ، من الماء الأجاج والفرات ، ومن مَلَك ، ما لولاه لم تكن الرياح الجاريات ، ولم يُوجد الملح من المياه ولا الفرات .

ومن إيلاجه ، سبحانه ، الليل فى النهار ، وما قدر بهما من المواقيت والأقدار ، وتسخيره سبحانه للشمس والقمر ،اللذين بهما دبر مسير الفلك فى البحار ، كل مدبرٍ ، كان لتدبيره فى المسير بهما ، فى بحر حكمه ، (ليس) فيه للفلك بعد الله من نجاةٍ عصمهة. لما جعل ، سبحانه ، فيهما من الضياء ، وبصَّر بهما فى المسير ، من القصد للأشياء .

وبصَّر ، تبارك وتعالى ، بغيرهما ، إذ فُقدَ فى ظلمةِ الليل ، ما جعل ، سبحانه ، من البصرِ بتسخيرهما من النجوم السائرات [1] ، التى جعلها الله للسائرين فى الظلمات ، سروا فى البحار أو كان سراهم فى الفلوات ، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [2] .

وتسخير ما ذكر الله من الشمس والقمر ، وتسخيره لغيرهما ، من النجوم السُّيَّر ، فظاهرٌ ، بحمد الله ، غير متوارٍ ولا خفيٍ ، يبصره عيانًا ، كل ذى عقلٍ حيٍّ ، لما فيها من أثر التسخير ، وبيّن مامعها من دليل التدبير ، بتفاوت نورها ، وغيره من أمورها ، فى السُّرعة والإبطاء ، والظهور والخفاء والرجوع والتحيز ، والدؤب فى التدوير ، فهى راجعة فى المسير ، ومتحيزةٌ ومقبلة ، بالدؤب ومدبرة .

٦ ظ / فهذه حال المسخر غير مريةٍ ولا شك ، جرى بها فلكها ، أو كانت جارية بأنفسها فى الفلك ، وتفاوت ما بينها من الضياء ، فكفيره من تفاوت ما بين الأشياء ، ولا يقع حكم التفاوت أبدًا بين متفاوت ؛ إلا كان له وفيه من يفاوت بينه ، فى

---

(١) فى الأصل السائر .

(٢) سورة الأنعام : آية ٩٧ .

حاليه ، وكان مملوكًا اضطرارًا ، أو غير مالك ، وكان يملكه من أسلكه من التفاوت فى تلك المسالكِ .

وكذلك حكم تفاوت هذه النجوم ، يجرى مسخرها بها ، بحكم محكوم ، ولله ، سبحانه ، فى ملكه كل نجم وفلك ، ما له من ملك كل مملوكٍ ، وما ملك ، والحمد لله ، إله الآلهة ، وملك الملوك ، ومدبر كل نجم ، وغيره ، بما لا يخفى من أثر تدبيره ، فى الهيئة والتصوير ، والمقام والتحييز ، والدؤب والتسيير ، ذلك قوله ؛ سبحانه ، فيما وصفناه من قدرته ، على خلق الواحد المشتبه ، من شتيت الأصناف ، وخلقه للكثير المختلف ، من الواحد الذى ليس بذى اختلاف .

وما ولى الله ، سبحانه ، من تدبير النجوم ، وتسخيرها ، وإجراء الفلك فى مختلف البحار ، وتسييرها ، وإيلاجه ، سبحانه ، الليل فى النهار ، وتقديره ، سبحانه ، لذلك كله بأحسن الأقدار : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (١) .

* آيات الله فى خلق السموات والأرض :

فصدق الله ، تبارك وتعالى ، ذو الملكِ والقدرة ، والأمثال العلى ، أنه لهو الله ربنا ، ومنّا منه ، كان خلقنا وتركيبنا ، له الملك ومنه عجيب التدبير ، ومن دعا معه ، أودونه ، فما يملك من قطمير ، « والقطمير » (٢) فأصغرما يملكه ، متفردٌ به مالك ، أو يشرك مليكا فى ملكه مشارك ؛ فكل ما ذكر الله ، من هذه الأمور ، فمبيّن بأثر التدبير فيه ، من الله يكون (٣) غير مستور ، يشاهده ، ويحصره ويعاينه من آمن بالله شكرًا ، أو صدَّعن الله كفرًا .

أوَلا تسمعَ قوله ، سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا

---

(١) سورة فاطر : الآيات ١١ - ١٣ .

(٢) انظر المعجم الوسيط : جـ ٢ / ٧٥٤ ، مادة (القطمير) .

(٣) فى الأصل يكن .

﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [1] .

ففتق السماوات والأرض ،فيهن ظاهر ، لا يتوارى ، يراه ويعاينه كل ذى عين ترى ، وما يعاين فيهن ، ويرى فتقا فشاهد ، على أنهن له قبله رتقا ، إذ [2] لا يكون فتق ، إلا لمرتقٍ ، كما لا يكون رتقٌ إلا لمنفتقٍ ، ولا فتح إلا لمنغلق ، ولابدٌ يقينا ، لكل مفتوق من فاتقه ، كما لابد لكل مفتوحٍ ، من فاتح إغلاقه ، وما جعل الله من الماء ، من الحيوان ، فموجودٌ ، ما ذكر الله منه بالعيان .

* ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ .

ولأن كل شجرة قائمة حية ، أو دابة ناطقة ، أو بهيمة ، فمن الماء جعلتها ، وبه قامت حيلتها ، ألا ترى أن الشجرة إذا فقدت من الماء غذاءها ، وفارق الماء ٥٧ و/ قلبها ولحاءها ، يبست فماتت ، وانحطمت فتهافتت ، وكذلك الدليل على أنها من الماء ، جعلت إذ كانت ، إذا عدم الماء عدمت . أوَلا ترى أنه لولا مياه الذكران ، والإناث ، التي هى النطف ، إذاً لما وجد من البشر والبهائم ، طارفٌ يطرف .

فذلك الدليل على أنهم من الماء جعلوا ، إذ كان الماء إذ اعدم ، عدموا ، وذلك قوله ، سبحانه : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ [4] .

* **آيات الله فى الجبال :**

وما جعل الله ، سبحانه ، فى الأرض من رواسى الجبال ، وغيرها ، مما ثقلها به من الأثقال ، كى لاتميل بمن عليها ، من الإنسان وغيره من أنواع الحيوان ، الذى لابقاء له ولا قوام ، مع الميدَان ، فموجود بايقين الإيقان ، إذ توجد بالعيان ، الأفلاك تمر من

---

(٤) سورة الأنبياء : الآيات ٣٠ - ٣٣ .

(٢) فى الأصل : إذا .

(٣) سورة الطارق : الآيات ٥ - ٧ .

(٤) سورة الفرقان : آية ٥٤ .

تحت الأرض دائرةً ، وتخفى بمرها تحتها ، وتظهر عليها سائرة ، ولا يمكن ان يكون مسيُّرها تحتها ، ومقبلها ومدبرها إلا فى خلاء أو عراء أو هواء أو ماء[1] .

وأىُّ ذلك ماكان مسيرها فيه ، ومقبلها ومدبرها ، احتاج مَن على الأرض ، من ساكنها ، إلى ما جعلهم الله محتاجين إليه ، من تثقيل قرارهم ، بما ثقله الله من رواسى الجبال ، وغيرها مما ثقلها به ، سبحانه ، مما عليها من الأثقال ، لكيما تكون كما قال الله : «قراراً» ؛ ولما جعله الله خلالها أنهاراً ، ولو لم تكن سكنًا قارًا ، لما احتملت من أنهارها نهرًا ، ولو مادت لاضطربت ، غير مستقرة ولاهاوية ، ولو لم تستقر وتهدأ ، لكانت أنهارُها متفجرة غير جارية ، لا ينفع ما جعله الله حاجزًا وبرزخًا ، وحبسًا ثابتًا مرسخًا بينهم ، ففسد عذب مياها ، وملحة مفسدة[2] أمورها ومصلحةٍ ، فاختلط فراتها بأجاجها .

وبطل ماجعل فيها من سبيل منهاجها ، حتى لا يكون لفلك فيها سبيل مسيرٍ ، ولا بطامى حمِّ مياهها صوت خرير ، ولو كان ذلك فيها كذلك ، لكان (بيِّن)[3] فيها من فساد التدبير ، وجفاء الفعل فى حسن التقدير ، ما لا يجهل ، ولا يخفى ؛ ولكنه ، تبارك وتعالى ، الطف فى التدبير لطفًا ، وأعلم بالامور كلها ، علمًا ، من ان يدبر إلا محكمًا ، الم تسمعَ لقوله ؛ سبحانه : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[4] .

فإن قال قائل : فما جعل من الأثقال عليها والجبال ، لا تزيدها إلا ثقلاً ، وكل ما ازداد ثقلاً هوى ، وذهب سُفلاً ، فنحن إذًا نهوى سافلين ، وقد نرى أنّا بالعيان عالين !... وهذا من القول تناقضٌ واختلاف لا يصح ، لذى لبٌ ، إقرارٌ ولا اعتراف .

قلنا : قد قيل فيما تحت الأرض ، وما يحملها ويمسكها ، بحيث هى ويقلها ، أقوال كثيرة غير واحدةٍ ، قالتها فرق ملحدة ، وغير محلدةٍ ، فمنهم من

---

(١) القاسم الرسى من الذين يقولون بكروية الأرض ، وأنها تدور ، وهو فى ذلك يتوافق مع ما اثبته العلم بعد ذلك ويخالف التصورات الفاسدة ، التى تعتقد ان الأرض مسطحة ، وسيأتى قريبا ما يدل على ما ذكرنا .

(١) مطموسة بالأصل .

(٣) زيادة من الهامش .

(٢) سورة النمل : اية ٦١ .

– قال : تحت الأرض خلاء ؛

– ومنهم من قال : تحتها هواء .

– ومنهم من قال : تحتها لج ماء ؛

– **ومنهم من قال** : ليس تحتها شئ من الأشياء ؛ وهى غايةُ الثقل ومنتهاه ، وكل ثقيل فإليها انتهاؤه ، فليس لجرم من الأجرام ثقلها ؛ ولا شئ من الأشياء فى الثقل مثلها ، فهى أثقل الأثقلين ، وأسفل السافلين .

٧ ظ / وما كان وهوَ أخف منها ، فغير شكٍ ، أنه مرتفعٌ عنها ، أو قار عليها ، أو داخل فيها ، وقارها بحيث هيَ زعموا – قرار طبيعيٌ .

* **ومنهم من قال** : إن قرارها بحيث هى ، قرار موضعى ، وأنها إنما ثبتت بحيث هى من موضعها ، واستقرت ثابتةً فى موقعها ؛ لأنها – زعموا – معتدلةٌ فى الوسط ، غيرمائلة إلى جهة من الجهات بفرط ، مستوية كاستواء كفة الميزان ، ممتنعة – لاستوائها – عن الميلان ، يمينًا أوشمالاً ، أو علواً أو سفلاً .

* **وقال حشو** (١) **هذه الأمة** المختلف ، الذى لا يفقه ولا ينصرفُ : قرارُ الأرض – زعموا – على ظهرِ حوتٍ ، ونعتوا حوتهم ذلك بألوان من النعوت .

* واشبه هذه الأقوال ، عندنا بالحق ، وأقرب ما قيل به فيها من الصدق، أن يكون ما تحت الأرض خلاء متفهقًا ، وهواء من الأهوية متحققًا ، ليس فيهما لسالكهما ردٌ يرده ، ولا للمقبل ولا لمدبر فيهما صدٌ يصده ، لقول الله سبحانه : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (٣٣) ﴾ (٢) .

وليس أحدٌ من الفرق كلها التى وصفنا ، وإن قالوا من مختلف الأقوال ، بما الفنا إلا مقرٌ لا ينكارُ ، ومعترفٌ لا يكابرُ ، أن الشمسَ والقمرَ يسلكان بانفسهما ، أو يسلك فلكهما بهما ، فيما يرى من دوْرهما ، ويعاين فى كل حين من مرورهما ، من تحت الأرض – لا من فوقها – ظاهرٌ ؛ ذلك بغروب الشمس فى كل يوم وشروقها ؛ لا يسلكان يمينًا ولايسارًا ، ولا يختلف مسلكهما تحتها ليلاً ولانهارًا ، والشمس

---

(١) انظر الموسوعة الفلسفية : لحفنى ؛ ص ١٦٩ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ٣٣ .

والقمر فجسمان ، مدركةٌ جسميتهما بالعيان ، يذرعان ذرع الأجسام ، وينقسمان بابين الانقسام ، لهما أوساط وأطراف ، وفيهما كلٌّ وانصاف ، والأرض فذات جسم مصمت معلومٍ ، لا يمكن ان يسلكه جسم مثله من النجوم ، ولا يمكن جسمًا ان يسلك إلا فى هواءٍ اوخلاءٍ او فتقٍ ، إن سلك فى ارض او ماء أو فى جوٍّ من الأجواء .

وإن كان مسلكه من الأرض أو الماء ، إنما يكون فى فتقٍ ، ففى الخلاء سلك أو الهواء ، وإن هو احتجب من العيون ، فلمَ يُرى ؟!

وإن كان مسلكه فى فتق من الأرض أو ماءٍ ، لا فيما قلنا به من هواء أو خلاء ، انتقض ما أجمعوا عيانًا عليه ، واجتمعت أقوالهم جميعًا فيه ، من ان مسلك النجوم من وراء قاصية النجوم [1] .

*** آيـة خلـق الجبـال :**

وماجعل الله فى الجبال الرواسى ، وغيرها من القبان [2] الشُّمَّخ – الطوال – العوالى ، من فجاج السبل ، ومن الطرق الذلل ، فما لا يمترى فى وجود صنعهِ وتقديره ، بما لايرى فيه من إحكام الصنع وتدبيره ، منصفٌ انصف فى نظرٍ لنفسه ، قاضٍ على الأمور فيها بحقيقة درك حسه ؛ لانه قد أدركَ بحسه دركًا بتًا ، وأيقن بقلبه إيقانًا مثبتًا ، ان أصغر ما يرى من هذه الفجاج سبيلاً ، لم يتهيئ لسالكه سلوكه ، ولم يمكنه ، حتى ذُلِّلَ تذليلاً ، وأن هذه الفجاج ، التى جعلت سُبلاً ، وهيئت مع صعوبتها طرقًا ذللاً ، لم تاتِ ، ولم تتوطا سبلاً وسرطًا فى حزون الجبال الشوامخ ، وبطون البيدان الرواسخ ، إلا بقوةِ أيدٍ من قوى شديد ، من عزيز حميد ، لا يؤده حفظ شئ ولا صنعه .

٨ و / ولا يمتنع منه قوىٌّ ، وإنْ عزَّ ، يمنعه ذلك الله العزيز الاقوى ، ومن لا يُماثل فى شئ ، ولا يساوى ، فيصعب عليه ما يصعب على الأمثال ، من صنع فجاج رواسى الجبال ، وماجعل فيها من السبل المسهلة ، وما مَنّ به فى ذلك من النعم

---

(١) هوكلام يدل على تصور مقبول لدورة الافلاك ، وخصوصًا المجموعة الشمسية فى زمن القاسم وهو اقرب للصواب والتطور ، من الاقوال الاخرى ، التى هى أقرب للخرافة والأسطورة .

(٢) اى المثبتات والموازين .

المفصلة ، التى لا يمنَّ بمثلها مانٌ ، ولا يحتملها سوى إحسان الله إحسانٌ ، ولا يدعى المنة فيها مع الله احدٌ ، ولا يقومُ بها سوى مجد الله مجدٌ ، ومن ينكرُ إلا بمكابرةٍ [1] لنفسه ، أو إكذابٍ لحقائقِ دركِ حسِّه .

إنَّ السماءَ جعلت ، كما قال الله ، سبحانه : سقفًا محفوظًا ، وقد يعاين سمكها – عيان عين – مرفوعًا ، وآياتها ، من نجومها دائبة غروبا وطلوعًا .

* آية خلق السماء والنجوم :

وترى السماء كما قال الله ، سبحانه : محفوظةً فى مكانها ثابتة غير زائلةٍ .

ونرى الشمس والقمر ، وغيرهما من نجومها ، مقيمةً على هيئةٍ واحدةٍ ، غير حائلةٍ ، ونعلم يقينًا ونوقن ، تبينًا ، أنه مستنكرٌ مدفوع ، ومقبّحٌ فى اللبِّ مشنوع ، أن يتوهم حفظ مثل ما ذكرنا ، ودوام ما قد عاينّا وأبصرنا ، دائمًا ثابتًا مقيمًا ، ومن البلاء والزوال ، سليمًا ، إلا بحافظٍ عزيز ، وحرزٍ من الحفيظ حريز ، لا تختلط به الملالات ، ولا تلتبس به الغفلات ، ذلك الله العزيز المقتدر العليم .

ومن يشكُّ فيما قال الله ، من إعراضِ الناس عن آيات السماء ، وهم بكل ما فيها من آياتها ، أجهل الجهلاء ، لا يعتبرون من غيرها ، بظاهر مقيم ، لا ، ولا بسائر دائب قديم ، لا ينى فى مسيره ولا يفتر ، يخفى فى مسيره مرة ، ويظهرُ مدبر ، بما يحثُّ حثًا ، لا يحتمل غفلةً ، ولا عبثًا فى رجوع ، ولامُقامٍ ولامسيرٍ ، ولا فيما يعاين من الخفا والظهور ، ولا فى شئ مما له من صنع ، ولا من تدبير .

* آية خلق الإبل :

* ومن تنبيهه أيضًا قوله ، تبارك وتعالى : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ⑰ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ⑱ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ⑲ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ⑳ ﴾ [2] .

فخلق الإبل ، الذى هو صنعها ، فيها موجود ، ورفع السماء معها ، معاين مشهود ، ونصب الجبال أوتادًا ، وسطح الأرض مهادًا ، متيقن معلوم ، ومعاين

---

(١) فى الأصل مكابرة .

(٢) سورة الغاشية : الآيات ١٧ – ٢٠ .

مفهوم ، وهذه كلها ، فقد ثبتت صنعًا ، وثبت كل صنع بدعًا ، بما بان فيها ، وشهد عليها ، من دلائل الصنع وتدبيره ، ومعالم البدع وتاثيره .

*** تقرير دليل الصنعة كما يقرره المتكلمون :**

فاين خالق الإبل وصانعها ، وممسك السماء ورافعها ، وناصب الجبال وموتدها ، وساطح الأرض وممهدها ، إذ لابد اضطرارًا لكل مصنوع من صانع ، ولكل مرفوعٍ من الأشياء من رافع ، ولكل منصوبٍ موتدٍ من ناصبه وموتدِه ، ولكل مسطوح ، وممهد ، من ساطح ومُمهدٍ ، ذلك الله رب العالمين ، وصانع الصانعين ، الذى جعل الأرض والإبلَ والجبال ، صنعًا له مصنوعًا ، والسماء سقفًا ، بحفظه له ، ثابتًا محفوظًا مرفوعًا .

* ومن توقيفه وتفهيمه وتبيينه وتعليمه ، قوله ، سبحانه : ﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)** ﴾[١] .

(فلابد فى حسٍ ، ولا عقل ، ولا عند مضرورٍ بخبل)[٢] لكل بناء (من بانٍ)[٣] ، غاب أوحضر من بناه[٤] ، ولا لكل مرفوعٍ ومسوىً من رافعه ومسوّيه ، ولابدَّ لكل ليلٍ مغطشٍ من مغطشهِ ، كما لابد لكل عرش معروش من مُعرشهِ ، ولابد لإخراج الضحى من[٥] مخرج ، وإن كان لايرى - ولابد لدحوِ الأرض من داحيها ، لما تبين ٨ ظ/ من شواهدِ الدحوِ عليها ، ولابد لمخرج المرعى ، والماء من مخرجه ومرعيه ، ولابد لما أرسى من الجبال من مرسيه ، لما فيها بينا من علم كل مُرسٍ ، وإن كان هذا كله يدرك عقلاً وحسًا ، فلابد من صانع السماء وبانيها ، ورافع سمكها ومسويها ، ومغطش ليلها ، ومخرج ضحاها ، ولا ممن خلق الأرض ودحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، ومن نصب الجبال وأرساها .

ثم لابد إذ لم يُوجد ذلك شيئًا مما وجدنا بالحواس الخمس ، ولا شيئًا مما يدرك

---

(١) سورة النازعات : الآيات ٢٧ - ٣٢ .

(٢) اعتقد أنها : فلا ينكر فى حسٍ . . . ان .

(٣) ليست بالأصل .

(٤) فى الأصل بانية .

(٥) فى الأصل ومن .

بالعقل ، من كل نفسٍ ، وأن يثبت بأثبت التثبيت ، وأيقن اليقين البتّ ، أن صانع ذلك كله ، ومن تولى منه إحكام فعله ، خلافٌ ، سبحانه ، لكل محسوسٍ ، ولكل ما يعقل من النفوس .

*** إبراهيم ، عليه السلام ، يستدل على وجود الله :**

ومن ذلك ، وفيه من الدلائل عليه ، قولة إبراهيم ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم ، فيما دار بينه وبين قومه في الله ، من الجدال والخصام يا قوم : ﴿ **مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٥٦** ﴾ [1] .

فشهد ؛ صلى الله عليه ؛ شهادة الحق ، لله رب العالمين ، ونبههم بشواهد الله ودلائله ، بما قد يرونه رأى العين ، من صنعه وجعائله .

أولا يعلم من يعمى ويجهل ، فضلاً عمن يبصر ويعقل ، أنه لو كانت هذه البدائع والأصول ، وما تدركه منها عيانًا العقول ، على ما يقول به فيها الجاهلون ، أنها كانت وجاءت ، كما أرادت وشاءت ، لما فضل بعضها أبداً بعضًا ، لما كانت الأرض سفلا وأرضا ، ولما قصُر لأوضع الأشياء وأدناها ، عن درجةٍ أرفع الأشياء وأعلاها ، ولكانت الأشياء جميعًا سواء ، ولما كان بعضها من بعضٍ أقوى ، حتى يكون كلها شيئًا واحدًا ، وحتى لا يوجد للشئِ لشئ منها ضداً ، وقد يوجد باليقين من تضادها ، ويتبين من صلاحها وفسادها ، لكل حاسةٍ من الحواس الخمس ، ومن سلمت حواسه من جميع الإنس ، فقد يستدل بما يرى فيها من الاختلاف والنقائض ، على أن لها صانعًا ، خصّها بما بان فيها ، من الاختلاف بخصائص تُرى .

تبارك وتعالى ، من شبهها في النقص والاختلاف ، متعالٍ عما يوجد ، أو في واحدٍ منها من الأوصاف ، فدلَّ ، سبحانه ؛ على صنعه الأشياء كلها ، بما أبان فيها ، من تصريف أحوالها ، وتنقلها .

---

(١) سورة الأنبياء : الآيات ٥٢ – ٥٦ .

* **دليـل التغير والتحـول :**

واحتج إبراهيم ، عليه السلام ؛ عند محاجته لقومه فيه ، ومنازعته لهم ، فيما كانوا يعبدون من النجوم معه ، وإنما هي صنعٌ لله مغلوبٌ ، غير غالب ، ما أراهم ، صلى الله عليه ، من الأفول فيها ، والزوال ، وبما أبان عليها من أثر « التدبير » والتبديل والانتقال ، وتعرّف ما لا ينكرونه فيها ، من الأفول ، فلما أراهم أنها من الزئلين .

٩ و / **قال لهم** : لا احبُّ الآفلين ، يقول ، ﷺ ؛ عند افول الكواكب : ﴿ **لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)** ﴾ [١] ، وكذلك قال : ﴿ **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)** ﴾ [٢] .

والفاطر [٣] : فهو المبتدئ الصانع ، والحنيف [٤] : هو المخبت الخاشع ، فاستدل ؛ صلوات الله عليه ؛ بدلائل الله ، من سماواته وأرضه ، على أن الله صانعٌ لذلك كله ، لا لبعضه وتبرأ ؛ صلوات الله عليه ؛ من شركِ كل من أشرك ، إذ رأى كل نجم منها ، إنما يسلك ، كما أُسلك ، بما رآه بيِّنًا في جميعها ، من تدبير بديعها ، في الجيئة والطلوع ، والذلة والخشوع ، وعلم أنه لا يكون ما رأى منها عيانًا ، وأدركه فيها إيقانًا ، من الطلع في الأفوال ، لا من مصرفٍ ناقلٍ ، غير منقولٍ ، فقال ؛ صلى الله عليه : ﴿ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)** ﴾ [٥] الذين أشركوا بين المالك والمملوكين ، تجاهلاً بما يعلمون ، ومكابرة لما يرون ، من التزايل والفرق ، بين الخالق ، والخلق والمبتدع والبدائع ، والصانع والصنائع .

وفي الدلالة على الله بدلائله ، وبما جعله دليلاً عليه من جعائله ما يقول لهم ؛ صلى الله عليه ؛ فيما كانوا من الشرك فيه : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ**

---

(١) سورة الأنعام : الآيتان ٧٦ - ٧٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآيتان ٧٨ - ٧٩ .

(٣) أنظر المعجم الوسيط : جـ ٢ / ٧٠١ ، مادة : « فطر » .

(٤) أنظر المعجم الوسيط : جـ ١ / ٢١٣ ، مادة : « خبت » .

(٥) سورة الأنعام : آية ٧٩ .

الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١) .

فلما رأى ؛ صلى الله عليه ؛ ما رأى من عالم ومعلوم ، وكل ما أدركه ، وهم من الوهوم ، ملكًا مربوبًا ، وصنعًا مغلوبًا ، قال ، صلى الله عليه : ﴿ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٢) الذى هو رب السموات كلها والأرضين ، ثم ابتدأ احتجاجًا عليهم لله ، فى معرفته ، بما لا يوجد سبيلٌ إلى دفعه ، من صفته ، وما بان لله به من خصائص الأنعات ، التى لا توجد إلا فيما له من الصفات ، قال ؛ صلى الله عليه : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٣) .

فهو الله الخالق ، الذى لا خالق سواه ، والهادى الذى لا يشبه هدى هداه ، والمطعم الساقى ، الذى لا يطعم ولا يشرب ، إلا من أطعمه وسقاه ، والشافى من كل سقم ، الذى لا يشفى من سقم أبدًا ، إلا من كشف عنه سقمه فشفاه ، والمميت والمحيى ، الذى لا يموت أبدًا ، ولا يحيى إلا من أماته وأحياه ، والغافر ، الذى لا يظفر بالمغفرة ، إلا من وهباها إياه ، لا توخذ المغفرة منه كرها ولا قسرًا ، ولاينالها إلا من كان الله له مغتفرًا ، ألا تسمع كيف يقول ؛ صلى الله عليه : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي ﴾ (٤) ، ويوم الدين ، ففيه يغفر الله ، لمن شاء أن يغفر له من المذنبين فاستدل ؛ ٩ ظ / صلوات الله عليه ؛ ودل بما عدد ، من هذا كله على رب العالمين ، وليس مما دل به ؛ صلى الله عليه ؛ من دليل صغير ولا كبير ، يدل أبدًا مستدلاً إلا على الله العلى الكبير ، فذكر إبراهيم ؛ عليه السلام ؛ مننًا من الله ، لا يمن بها مانٌ ، وإحسانًا من الله ، لا يمثل به إحسانٌ ، منها خلقه (لأعضاء) (٥) الإنسان السليمة الظاهرة القوى ، التى ليس فيها لمدعٍ ، من الأولين والآخرين ، دعوى ، والتى كلهم جميعًا فى حاجة

---

(٦) سورة الشعراء : الآيات ٧٥ - ٨٢ .

(٢) سورة الشعراء : آية ٧٧ .

(٣) سورة الشعراء : الآيات ٧٨ - ٨٢ .

(٤) سورة الشعراء : آية ٨٢ .

(٥) زيادة من الهامش .

إليها سواء ، وكيف يصح في ذلك لمدعٍ شيءٌ ، لو ادعاه ، وهو لا يقدر على أن يزداد مثقال ذرة ، في شئ من خلقه ، ولا قوة ؟! . .

فكيف يعطي معطٍ شيئًا من ذلك ، أحداً سواه ؟ . . فهذا والحجة البالغة لله ، فما لا يمكن فيه الكيف ، ولا يتوهمه بصحة من الدعوى قويٌّ ولا ضعيف ، والحمد لله ، على ما أبان من برهانه وحجته ، لإبراهيم ، صلى الله عليه ؛ في محاجته ، وفي ذلك ما يقول ، سبحانه [1] ؛ لإبراهيم ؛ صلى الله عليه : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ [2] .

وما ذكر ؛ صلى الله عليه ؛ من فعلِه به في المطعم والمشرب ، والشفاء من المرض والوصب ،والموت والحياة ، والمغفرة للخطيئة والإساءة ، فما لا يدعيه مدع ، ولا يدعى له أبداً ، بصدقٍ ولا كذبٍ ، ولا يوجد ما يرى من صنعه وتدبيره (أبداً) [3] ، إلا للرب ، كما لا يرى صنع الأرض والسماوات ، وما بينهما من الفتوق والفجوات ، من صانع ولا خالق ، سوى الله ، فكذلك ما ذكر ، إبراهيم ، لا يكون إلا من الله .

فلولا صنع الله ؛ سبحانه ؛ للسماء ، لما ارتوى أهل الأرض من الماء ، ولولا ما صنع الله منها ، ومن الأرض والهواء والماء ؛ لما اغتذى أحد أبداً ؛ ولا ارتوى ، ولخفتَ كل مُغتذٍ مواتًا ، ولمات ، إذ لم يغتذ خُفاتًا [4] !. .

فاحتج إبراهيم ؛ صلى الله عليه ؛ في الدعاء إلى الله من صنعه وخلقه ، ورزقه وغير رزقه ، بما لم يزل أنبياء الله ؛ عليهم السلام ؛ قبله وبعده ، تحتج به لله ، على كل من أنكره وجحده .

* نوح ، عليه السلام ، يدعو قومه ، لمعرفة الله وعبادته :

فمن كان قبله ممن وهبه الله رسالته ودلَّ على معرفة الله دلالته نوح ؛ صلى الله عليه ؛ إذ يقول لقومه فيما يدعوهم إليه من عبادة الله ومعرفته ويدلهم (عليه) [5]

---

(١) في الأصل سبحا فيه .

(٢) سورة الأنعام : آيه ٨٣ .

(٣) زيادة من الهامش .

(٤) خفت ، خَفْتًا ، وخُفُوتًا ، وخُفاتًا : سكنَ وسكت وضَعُفَ . انظر المعجم الوسيط جـ ١ / ٢٤٥ ، مادة : « خفت » .

(٥) زيادة من الهامش .

بالخلق والصنع من صفته : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [١] .

فأبان لهم ؛ صلى الله عليه ؛ فيما عَدَّدَ كله ، أثر صنع الله برهانًا ، واحتجاجًا بخلقه لهم في أنفسهم أطوارًا ، يريد بالأطوار طبقًا ومرارًا ، مرة من تراب وطين ، ١٠ و / وطورًا من ماء مهين ، ومرةً مضغة ، وطورًا علقة يصرفهم ، سبحانه ؛ خلقه بعد خلقةٍ ، ثم خلق للإنسان عظامًا ، ثم كسا العظام لحمًا ، ثم أنشأه خلقًا آخر ، بشرًا قد جعل له سمعًا وفؤادًا وبصرًا ؛ كما قال ؛ سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [٢] ؛ ومعنى ذرأكم : فهو كثّركم ونماكم ، وكذلك فعل ربُ العالمين كما قال ؛ ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [٣] .

*** يوسف ، عليه السلام ، يستدل على الواحدانية :**

ومن دلائل من كان بعده ، من رسول الله وأنبيائه ، الذين جعلهم من ذرية إبراهيم ؛ عليه السلام ؛ وأبنائه ، قول يوسف ؛ صلى الله عليه ؛ لصاحبى السجن ، الذين كانا معه فيه ، وهو يدلهما على تفرد الله به من الربوبية ، وما هو له لا لغيره ، سبحانه ، من الوحدانية : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ... ﴾ [٤] .

يقول صلى الله عليه ؛ أأربابٌ ، الربوبية بينهم ليست بخالصةٍ لواحدٍ منهم ، خيرٌ فى الربوبية أمرًا ، وأعلى فى الفضيلة قدرًا ، أم تكون الربوبية لوا حدٍ خالصة ، ولربٍ لا لربين اثنين خالصة ؟! . .

فمن يمتنع من الأصحاء ، سمع أو لم يسمع من النصحاء ، أن الربوبية لربٍ واحد

---

(١) سورة نوح : الآيات ١٣ – ٢٠ .

(٢) سورة الملك : الآيتان ٢٣ – ٢٤ .

(٣) سورة المؤمنون : آية ١٤ .

(٤) سورة يوسف : الآيتان ٣٩ – ٤٠ .

افضل فضلاً ، وفى رب واحد ، أكمل منها فى اثنين ، وبين ربين وأعلى ؛ لأنها لو كانت لاثنين ،كان كل واحد من الربين منقوصًا ، وكل إله من الإلهين بالنقص مخصوصًا ؛ فإن كانوا ، وهم أكثر عددًا ، كان كل واحد منهم أنقص أبدًا ، فكيف يكون المنقوص إلهًا ؟!.. أو يثبت ربا ، وأين الأعلى من الأشياء كلها قدرًا ، ممن له أضداد وأكفاء ؟!..

*** الاستدلال على الوحدانية بالعقل والنقل :**

وربنا ، فمعلوم فى الألباب غير مجهول ، وثابت لا يدفع فى العقول ، أن كل اثنين ، فبينهما تباين ،لا يخفى فى الأحوال ، يبين به أحدهما على صاحبه ، فى الفضل والكمال ؛ وأن أفضلهما أبدًا ، أحوالاً ، وأكملهما فى الفضل كمالاً ، وأولاهما بالأثرة والتقدمة ، وأحقهما بالطاعة والتكرمة ، وإذا كان ذلك موجودًا فى العقل ، كذلك لم تصح الربوبية أبدًا إلا لرب واحد ، وثبتت الحجة فى التوحيد ، وإثبات الألهية لله على كل ملحد ، وانقطع بين الموجد والملحد ، فى ذلك كله ، التشاغب ، وذهب بصدق الحجة لله ، فى ذلك كله ، التكاذب ، ونقى الحق من الباطل ، وتبرأ فلم يعمَ عنه إلا من لا يبصر ولا يرى ، فلا يجيب إلى الحقائق لله داعيًا ، ولا يسمع بالدعاء إلى الله مناديًا ، كما قال الله ؛ سبحانه : ﴿ **وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ** (١٩٨) ﴾ (١) .

*** موسى يستدل على وجود الله ووحدانيته :**

١٠ ظ / ومن مقاول رسل الله ، بعد يوسف ؛ صلى الله عليهم ؛ واحتجاجهم لله ؛ سبحانه ؛ على عباده بدلائله فيهم ، من قول موسى وهارون ، عليهما السلام ، (٢) إذ أرسلهما الله إلى فرعون : ﴿ **إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا**

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٩٨ .

(٢) زيادة ليست فى الأصل .

رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1] يقول ، صلى الله عليه ؛ إن كنتم ممن يوقنُ فى غيب بيقين [2] ، أو يستدل ، فيما غاب عنه بدليل مبين ، استدلالاً [3] ذوى العقول والألباب ، على ما غاب من أبصارهم بتوارٍ والتجاب ، وإنما يدرك ما غاب من الأمور ، بالفكر واليقين [4] ، ويدرك ما حضر منها بالحواس من العين أو غير العين ، وذلك فإنما هو درك البهائم الخرس ، التى لا تدرك شيئًا إلا بحاسٍ من الحواس الخمس ، ولا توقن أبدًا بغائب غاب عنها ، ولا تدرك إلا ماكان شاهدًا قريبًا منهما .

*** التأمل والنظر مما ميز الله به الإنسان على الحيوان :**

فأما أهل الألباب والعقول فيستدلون ، موقنين ؛ على الجاعل [5] بالمجعول ، وعلى الغائب المتوارى الخفى ، بالحاضر الظاهر الجلىّ ، وكل ما عظم من الدلائل وازداد عُظما ، ازداد به موقنوه يقينا وعلمًا . فلما كانت السموات والأرضون ، أعظم ما يرون من الدلائل ويبصرون ، دلَّهم بهما على ربهما .

وأخبرهم أنهم ، إن لم يوقنوه بهما ، لم يوقنوه بغيرهما ، لما فيهما من دلائل اليقين بصنعهِ وتدبيره ، فقال فرعون لمن حوله ألا تسمعون !..

فسألوا موسى كما سأله الملعون ، وارتابوا فى قوله ، كما ارتاب فرعون ؛ فقال موسى ، صلى الله عليه : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [6] فأخبرهم أن كلهم ؛ وكل ما كان قبلهم ؛ عبدٌ لله مربوبٌ ؛ إذ كلهم ، وكل من كان مثلهم ؛ مصرَّفٌ مقهور مغلوب ، يسقم ويفنى ويموت ، ويحلٌّ به السقم والموت . فقال لهم فرعون : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [7] .

فقال لهم موسى ؛ صلى الله عليه ؛ إذ عادوا يسألون : ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٦ – ٢٤ .

(٢) فى الأصل : بيقن .

(٣) فى الأصل : استدل .

(٤) فى الأصل : القين .

(٥) فى الأصل: العاجل .

(٦) سورة الشعراء : آية ٢٦ .

(٧) سورة الشعراء : آية ٢٧ .

وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ [1] فقررهم ؛ صلى الله عليه ؛ من ذلك بما لاينكرون ، إن كانوا يوقنون بغائبٍ أو يعقلون ، ودلهم على الله ، سبحانه ؛ بدليل مبين ، فيه لمن أيقن أول الدلائل ، وأيقن اليقين ، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [2] .

فاخبر ، سبحانه ؛ أن بيانه إنما هو للذين يعقلون ويوقنون من الغيب ، بما لايرون ولا يبصرون .

فأما أشباه البهائم ا، لذين لا يعلمون إلا ما يرون ويبصرون ؛ فإن الله ؛ سبحانه ؛ انتفى من البيان لهم ، وتبرأ من ذلك إليهم ؛ ذلك فمما يدل على علم الله وحكمته ، ولطيف خبره بأحوال بريته .

* جميع رسل الله استدلوا على وجوده ووحدانيته :

ومن ذلك قوله ؛ سبحانه ؛ لكفرة قريش والعرب ؛ ولمن كان معهم من (كل) [3] ذى لسان مُعرب : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [4] .

١١ و/ الذى يستدل عليه منهما ، بكل شئ فيهما ، من كلٍ أو بعضٍ !. فقال رسلهم فى ذلك لهم ، ما قال الرسل لأممهم قبلهم ، واحتجوا الله عليهم ، بمثل حجج نوحٍ وإبراهيم (فيه ودلوهم) [5] ، على الله بدلائله من فطرةٍ صنعه ، وفعائله ، وتعجبوا من شكهم ، وما هم فيه من شركهم ؛ مع ما يرون من الدلائل فى السموات والأرض ، ويبصرون مما يوقن باقله ، فيما غاب عنهم الموقنون .

---

(١) سورة الشعراء : آية ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : آية ١١٨ .

(٣) من الهامش .

(٤) سورة إبراهيم : الآيتان ٩ - ١٠ .

(٥) بالهامش .

ومن ذلك وفيه ، ومن الدلائل عليه قول الله ؛ سبحانه ؛ لرسوله ؛ صلى الله عليه وعلى الطيبين من آله ؛ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [١] .

فنبه ؛ سبحانه ؛ فى ذلك من دلائله على ما فيه لمن اعتصم به من الشك فيه ، أحرز الحرز الحريز ، ثم قال ؛ سبحانه ؛ فى هذه السورة تكريرًا للحجة المنيرة : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [٢] .

يقول ؛ سبحانه ؛ الذى خلق ذلك كله وصنعه ، لا صانع فيه غيره ، ولا صانع له معه ، فذلك كله ، وإن كابراوا ، فما لن يدعوه ، وإن لم يأتهم فيه قصص الله ، ولم يسمعوه .

كما قال الله ؛ تبارك وتعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [٣] .

فصدق الله ، لا شريك له ، فى أن من لم يعرف عقله هذا ، (و) (عقله) [٤] صنعا له ، وخلقا وحقا يقينا صدقًا ، فهو فى أبين الضلال ، وأخبل صاغر الخبال ، والحمد لله كثيرًا ، رب العالمين ، على ما أبان من حججه ، على الملحدين .

فكيف - يا ويله - يلحد ملحدٌ ، أو يهون ، أو يضعف لله موحدٌ ، ودركَ السموات والأرض وما بينهما ، من الخلق بالعيان ، والعلم بالله ؛ سبحانه ، فمدرك بأوضح من ذلك ، من العلم والإيقان ، واليقين بالله ، فما لا يشاركه ، ولا يختلط به أبدًا شكٌ ، وعلم الأبصار والعيان والحواس ، فعلم بيِّنٌ للإنسان والبهائم ، مشترك ،

---

(١) سورة إبراهيم : آية ٢٠ .

(٢) سورة إبراهيم : الآيات ٣٢ - ٣٤ .

(٣) سورة لقمان : الآيتان ١٠ - ١١ .

(٤) زيادة بالهامش .

وقد تعلم البهائم وتدرك بما جعل الله لها من حواسها فى السمع والبصر ، كل ما يدرك مدرك بالحواس ، من جميع البشر .

وكيف - ويلهم - يرتابون أو يلحدون ، أو يعتقدون من الشك فى الله ، والشرك بالله ما يعتقدون ، والله يقول ؛ جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [١] والولى [٢] : فهو النصير المانع ، والشفيع [٣] : فهو الطالب الشافع ، فأخبر ، سبحانه ، أن تدبيره وصنعه ، من العرش لما بعد عنهم ، كتدبيره وصنعه ، لما قرب من العرش فى الأرض منهم ، وإن بعد ما بين العرش [٤] ، وهو ذرى السموات ١١ ظ / العلا ، وبين ماتحتهن مما ترى أعينهم من الأرض الأولى ، مقدار ألف سنة كاملة مما يعدون ، وإن / الأشياء كلها لا تبعد عليه ، كما تستبعدون ، وكيف يبعد عليه ؛ سبحانه ؛ من الأشياء شئٌ ؟!! ..

* إرادة الخلق ، أو الإرادة الكونية :

وإنما ينشئُ منها ما ينشئُ ، إذا أراد له إبداء وإعادة ، بأن يريده ؛ سبحانه ؛ إرادة بعد إرادة ، كما قال سبحانه ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [٥] .

وكيف يشك ملحدٌ ، فى صنع الله للأشياء كلها أو فيما يرى من دقة [٦] الأشياء ، أو جلها ، وقد يرى كيف احكمت فاستحكمت ، وانقادت للصنعة فتقومت ، ودلت على ما فطرت عليه ، واضطرت ، فكلها معروفٌ مضرور ، وجميعها يدع مفطوراً ، لا يمتنع من الذل والقهر والخشوع ، ولا عن ما أبان الله فيه من

---

(١) سورة السجدة : الآيتان ٤ - ٥ .

(٢) انظر المعجم الوسيط : جـ ٢ / ١٠٧٠ . مادة : « ولى » .

(٣) انظر المعجم الوسيط : جـ ١ / ٤٨٩ . مادة : « شفع » .

(٤) للقاسم رسالة مخطوطة فى « صفة العرش والكرسى » ، مصورة عن الأصل ، بدار الكتب المصرية ، والمحقق اثبت صحتها ونسبتها وحققها له ، وستصدر فى مجموع آخر ، بإذن الله .

(٥) سورة النحل : آية ٤٠ .

(٦) فى الأصل دق .

أثر صنعة كل مصنوعٍ ، لا ينظر منه ناظر إلى طرف ، ولا يلتفت إلى كتف ، إلا وجد أثر الصنع فيه واضحًا بينًا ، ووجده بصنع الله له مخبرًا مبينًا .

*** الله يعلم موجوداً واحداً ، باضطرار :**

ولما ثبت اضطراراً ، بما لامرية فيه ، وبما جميع العقول كلها مجمعة عليه ، أن لكل ما يرى أو يسمع أو يُشم أو يذاق أو يلمس أو يتخيل ، فيتوهم مدبرًا ، أو غير مدبر ، ووجد خلاف المؤثر مؤثرًا غير مؤثر ، لا يمكن ذلك علما ، ولا يتخيل خلاف لذلك فهمًا ، لأنه لما كان ما وجد من الأشياء كلها مدبراً وصنعًا وخلقًا ، مُضْطرًا احتيج إلى علم مدبره ومفتطره ، فلابد - كيف ما كان - النظر فى ذلك ، فما لا يوجد أبداً إلا غير الله ؛ جل ثناؤه وتقدست بكل بركه اسماؤه ، فهو الله الصانع ، غير المصنوع ، والأول المبتدع ، غير المبدوع .

*** الله غنى غير محتاج :**

ولماكان كل عزيز من ذلٍ ، إنما يعزُّ فى بعضٍ ، لا فى كل ، وكان العزُّ كلا وبعضًا ، ولم يوجد العز كله لواحدٍ محضًا ، أيقنا أن بعض العز مملوك لمليك ، وأيقنا أن كل العز لمالك غير ذى شريك ؛ لأنه لو أن له فيه شريك ، أوله معه مليك ، لكان إنماكان له بعضه لا كله ، فرجعنا إلى الخطة الأولى ، وعاد العز ذلاً إذا كان مشاركًا فيه ؛ لأنه إنما له أخذ شطريه ، وذلك يرده إلى أن يكون عزيزًا ذليلاً ، وأن يكون ما يستكثره من عزه قليلاً ؛ لأن نصف العزّ أقل من ضعفه ، وضعف العزّ أكثرُ من نصفه ، وما ملك غيره من أحد شطرى ، فليس له بملك ولا عزّ معز ، ولكنه لمالكه وغير محرز من العز إلا لما أحرز [1] وجميعها قليلُ عزه ، إذ لم يملك العز كله فيحرزه [2] .

فليس العزيز الذى لا يزل إلا من له العز الذى لا يقلُ ، بأن يشاركه فيه الشركاء ، أوأن يتقسمه ، بملكها له الملكاء ، وذلك فهو الله العزيز الأعلى ، يهب لمن يشاء عزًا ، ويذل من يشاء إذلالاً ، بيده الملك وهو على كل شئ قدير ، كما قال ؛ سبحانه : ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [3] مع ما فى القرآن

---

(١) بالهامش أخر .

(٢) تكررت العبارة مرتين .

(٣) سورة الحج : آية ٧٨ .

من هـذا ومثلـه ، مما يكثر عـن أن يحيـط كتابنـا هـذا ، بتفسيره أو جُملـه .

١٢ و/ فأما دلائله لنا ، سبحانه ؛ على أنه خلاف الأشياء / ولكل ما يعقل في جميعها ، مـن العجـزة والأقوياء ، فقولـه سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [١] وما ليس كمثله شئ فهو خلاف لكل شئ .

*** الله الواحـد ، الصمـد :**

وقوله ؛ سبحانه ؛ في سورة التوحيد والإفراد ، بعد تنزيهه فيها ، سبحانه ، عن الولـد والأولاد : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [٢] ومن لم يكن له كفوًا أحدًا ، فهو خلافٌ لكل أحدٍ ، وما كان خلافًا للآحاد كلها ، كان خلافا ، اضطرارًا ، لأصلها ؛ لأن الأصل في نفسه وتحداده ، فهو غير شك ، جميع آحاده ، فالله هو خلاف الآحاد المعدودة ، وجميع ما يعقل من الأصول المحدودة ، وهو الله الصمد الحق ، الذي ليس من ورائه صمد يصمد إليه صامد ، والله الملك القدوس ، الذي ليس من ورائه ملك ، ولا قدوس يحده واحد .

*** الأول العظيـم العليـم :**

والله الأول ، قبل الأوائل المقدمة ، والعظيم قبل جميع الأشياء المعظمة ، فليس قبله أول موجود ، ولا بعده معظم معمودٌ ومن وراء كل عظيم عظيم ، حتى ينتهي إلى الله الذي ليس من ورائه عظيم ، وفوق كل ذي علم عليم ، حتى ينتهي إلى الله الذي ليس فوقه عليم .

*** الصمـد ، الأحـد :**

والصمد فهو النهاية القصوى في الوجود ، وفيما يرغب إليه فيه في الآخرة والدنيا من كل محمـود ، والأحد فما ليس له قبل لا بعد يفترقان فيه ، وما لا تجرى مدد الدهور والأزمان عليه ، لأنه إن افترق فيه القبل والبعد ، زال من صفة الواحدِ الصمد ، إذ هما فيه اضطرارًا مفترقان ، فهما عليه بالمقارنة ، لا شك ، متداولان لا خلوة له من أحْدهما ، يجرى عليه من المقارنة ، ما يجرى عليهما من حدهما ، ويزول عنه من

---

(١) سورة الشورى : آية ١١ .

(٢) سورة الإخلاص : آية ٤ .

الوحدانية ، ما زال عنهما ، ولا يتوهم أبداً خالياً منهما ، وكذلك ما جرت عليه مدد الأزمان والدهور وغيرّته تغييرها لغيره من الأمور كما قال ؛ سبحانه : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ ﴾ [1] فأوليته ، سبحانه ، آخريته ، وباطنيته ظاهريته ، لا يختلف من ذلك ما وصف به كما لا يختلف سبحانه في نفسه .

*** لا حد ولا نهاية لأسمائه الحسنى :**

وكذلك أسماؤه كلها الحسنى ، وأمثالها كلها العلى ، فأسماؤه [2] لا تتناهى مرسلة ، مطلقة مجتمعة كلها فيه ، غير مفترقة ، ليس لاسم منها حد محصور ، ولا لمثل منها حصار محصور ، فيكون الحد حينئذ ، للمحدود ثانيا ، وما حصر بالحد من المحدود متناهيا ، ولكنه إذ لا تحد الألباب له ، كيفا وكماً [3] قال ، تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾ [4] وكذلك هو ، سبحانه ؛ إذ لا تجد الألباب له مثلاً .

وما قلنا به في هذا من دلالة التفاضل فموجود ، والحمد لله ؛ لا ينكره عقل عاقل ، ومضطرة الألباب إلى علمه ، لايدفعه إلا مكابر متجاهل ، مع ما لا يأتي عليه ، وإن بلغ تعديدنا ، ولا تستقصيه وإن جهد تحديدنا ، من لطيف شواهد معرفة الله ، سبحانه ؛ وجلائلها ، وما جعل الله من شواهد المعرفة ودلائلها .

*** تعريف الله لعباده .. بالتوفيق والهداية :**

وكفى بما ذكرنا ، لمعرفة الله ، جل وعز ؛ علماً منيعاً شامخاً وعلماً بالله يقينا في النفوس ثابتاً راسخاً ، لايدفعه إلا بمكابرة العقول ، ملحدٌ ، ولا يصدف عن الإقرار به ، إلا معاند ملحدٌ [5] ، والحمد لله ، الذي لا يهتدي للخير أبداً ، إلا من هداه ، ولا يصيب الرشد ، إلا من أتاه إياه .

كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ⑤① ﴾ [6] ، وقال

---

(١) سورة الحديد : آية ٣ .

(٢) في الأصل فاسماء .

(٣) في الأصل : كفيا كما .

(٤) سورة النحل : آية ٦٠ .

(٥) في الأصل ملد .

(٦) سورة الأنبياء : آية ٥١ .

سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [1] .

*** تنزيـه الالهيـة مـن كل تجسيـم أو تشبيـه :**

فقلب الإيمان من كل عصيان ، اليقين بالله ، وبعلمه ، وإبراء الضمائر من توهمه ، فإنه لا تجول أوهام المتوهم إلا فى كل ذى صورة وتجسم ، ومن توهم الله جسمًا لم يصب بالله علمًا ، ولم يقارب من اليقين بالله شيئا .

ولذلك كان حشو هذه العامة من اليقين بالله برآء ، ولما التبس بقلوبهم وأنفسهم من ذلك واعتقاده ، اقتاده وليهم إبليس بالمعصية قيادة ، فحثّوا له بالعصيان سراعا عتقًا [2] ، واشتروا رضاه ، إذ لم يوقنوا بالله فسقًا ، فبدلوا معالم أموره ، وعموا عن ضياء نوره ، لم يزدادوا فى العمى عن الله إلا تماديًا ، ولم يجيبوا له إلى الهدى ، من الهادين إلى الله داعيًا ، وعدُّوا إساءتهم فيما بينهم وبين الله إحسانًا ، وكفرهم بالله ورسله وكتبه إيمانًا ، وجعلوا لله مثل السوء ، ولهم المثل الأعلى ، فتبارك الله ، عما قالوا به عليه ، وتعالى ، ونسبوا إليه من الجور والظلم (ما هم به) [3] أولى ، وله ، سبحانه ، لا لهم ، المثل الأعلى ، ومثل السوء فلهم ، كما قال سبحانه وهم كاذبون : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [4] ، وقال سبحان : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [5] .

*** الإيمـان بالوعـد والوعـيد :**

ولعمرى ، ما آمن بالآخرة مصدقًا ، ولا وجد لما حقق الله منها محققًا ، من أكذب وعدها ووعيدها ، وانكر من جزاء المحسن والمسئ عتيدها ، والله يقول ؛ سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [6] .

---

(١) سورة الأنعام : آية ٧٥ .

(٢) أي سراعا كالخيل المطلقة .

(٣) زيادة ليست فى الأصل .

(٤) سورة النحل : اية ٦٢ .

(٥) سورة النحل : آية ٦٠ .

(٦) سورة يونس : آية ٤ .

ويقول سبحانه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) ﴾ [١] ، ويقول سبحانه: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾ [٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [٣] ، ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾ [٤] وعداً من الله ووعيداً ، وجزاء من الله للفريقين عتيداً ، لا تكون الآخرة أبداً ، إلا هو معها ومن أنكره ودفعه ، أنكر الآخرة اضطراراً ودفعها ، وله جعلت الآخرة وثبتت ، وثبت باقياً معها أبداً ، ما ١٣ و / بقيت ، ولو أمكن فناؤه لأمكن فناءها ، وما بقيت الآخرة بقي معها جزاؤها ، فبقاء ، كل بكلٍ معقود ، وكل من الله فوعدٌ موعود [٥] لايدخله أبداً كذب ولا خُلف .

*** الإيمان بالعدل :**

ولا يزول من أوصاف الله فيه ، بصدقِ الوعد والوعيد وصف ، ولا أكفر بالآخرة وأمرها ، وما ذكر الله من بعث الأمم وحشرها ، ممن زعم أن الله يحكم يومئذ فيها بغير العدل ، فيقضي بين أهلها فيها بغير قضاء الفصل ، فيعذب من عذب فيها بأمور ، هو حملَ المعذب عليها ، حتى لم يجد من ارتكابها بدا ، ولا عمّا ارتكب منها مصداً ، وإن علم مايشاء فيها ، وارتضى ، وحكم الله به منها ، وقضى ، عذب بألوان العذاب، وعاقب بأشد العقاب .

---

(١) سورة النجم : الآيات ٢٩ - ٣١ .

(٢) سورة النساء : الآيتان ١٢٣ - ١٢٤ .

(٣) سورة النساء : الآيات ٢٩ - ٣١ .

(٤) سورة الكهف : الآيات ٢٩ .

(٥) فى الأصل موعو .

فوصفوا الله بإخلاف الميعاد ، ونسبوا إليه ما تبرأ منه ، من ظلم العباد ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [١] ، وقال ، تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [٢] ؛ وقال سبحانه ، فيما قالوا به عليه من إخلافه الوعد والوعيد : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾ ﴾ [٣] ؛ وقال سبحانه : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [٤] ، وقال ، تبارك وتعالى ، في حكمه يوم القيامة بين الخلق ، بعدله وقضائه ، يومئذ بين العباد بعدل فصله : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [٥] ؛ وقال سبحانه : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [٦] يقول ،تبارك وتعالى ، يوم القضاء بالعدل ، الذى كنتم به تكذبون : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[٧]. فلعدله ، سبحانه ، فى الحكم ، وتعاليه عن كل ظلم ، وُقِّفُوا فعرفوا ، وبعد المسألة اصرفوا [٨] إلى ما استحقوا من الجحيم ، واستوجبوا من العذاب الأليم .

*** فى ذم الحشوية :**

فاستقبل حشوَ هذه العامة [٩] ، ما بيّن الله من هذا كله ، بجحده ، وجاهروا الله وأولياءه علانيةً بردّه ، فكلما دعاهم المهتدون ليهتدوا ، استكبروا عن الهدى

---

(١) سورة يونس : آية ٤٤ .

(٢) سورة فصلت : آية ٤٦ .

(٣) سورة النساء : آية ١٢٢ .

(٤) سورة الزمر : آية ٢٠ .

(٥) سورة غافر : الآيات ١٧ - ٢٠ .

(٦) سورة المرسلات : آية ٣٨ .

(٧) سورة الصافات : الآيات ٢٢ - ٢٥ .

(٨) فى الأصل : ما صرفوا .

(٩) سبق وقال : حشو هذه الأمة .

وصُدوا ، وكلما ذكروهم بالله ليذكروا ، أعرضوا عن تذكيرهم بالله وفروا ، فكلهم مصرٌ مستكبرٌ ، حولٌ عن الهدى مدبرٌ ، كأنهم ، في ذلك ، بفعلهم وما أصروا عليه من جهلهم ، قوم نوحٍ ، إذ يقول فيهم ، صلى الله عليه ؛ لا عليهم : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ﴾ [1] .

فكلهم عدو للصادقين على الله ، مكذبٌ ، وفؤاد كل امرئ منهم ، عن الإيمان بالحق متقلبٌ ، وذلك إذ لم يؤمنوا به أول مرةٍ ، وكانوا به ، إذ سمعوه ، عند الله من الكفرة .

*** في نفي الجبر وإثبات الاختيار :**

ألم تسمع إلى قول الله ؛ سبحانه : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ۝١١١ ﴾ [2] فقوله ، سبحانه ، يشاء : إنما هو خبر عن قدرته عليهم ، وقوة سلطانه ، تبارك وتعالى ، فيهم ، ولو أنه شاء لمنعهم من المعصية ، فكانوا مؤمنين ، إذ كان الإيمان ، عندنا ، إنما هو أمان من عصيان [3] العاصين ، ومن منعه الله من المعصية جبراً ، فمأمونٌ عصيانُهُ ، وإذا كان الإحسان في ذلك المنع إحسانُ الله لا إحسانه ، وكان فيما منه من المعصية غير مطيع لله ، ولا مستوجب لثوابٍ من الله ، إذ منع من المعصية بجبر ، وحمل على الإيمان منه بقسر .

*** نصيحة الإمام لولده بالتقوى والعمل الصالح :**

فتبدأ – يابني – في طلب فعل الصالحات ، واكتساب الخيرات ، إذا أبتدأتَ بطلب اليقين بالله ، وحقيقة العلم لله ، فإنك ، إن تفعل ، اهتديت لكل بركة وخير ، وظفرت بالحظ الكبير ، وأمنت [4] بإذن الله من العمى ، ورويت بمعرفة الله من الظمأ ،

---

(١) سورة نوح : الآيات ٥ – ٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآيتان ١١٠ – ١١١ .

(٣) في الأصل عصان .

(٤) في الأصل : وافنت ، وهو خطأ من الناسخ ، لأن الأفن : نقص العقل ، او البطنة وكلاهما معنًا غيرمقصودها .

وشاركت الملائكة المقربين فى عبادتهم ، وازددت مما يمكنك من فعل كل خير ، مثل زيادتهم ، وأنست نفسك بالله من كل وحشة مرعبة ، واكتفيت بصحبة الله ، من كل صاحب مصاحبة ، وخفّ عليك من عبادة الله عبء الأثقال ، وكنت إمامًا للصالحين فى صالح الأعمال ، فدامت بالبر أعمالك ، وصدّق قولك فى الخير فعالك ، فكنت إلى الله حبيبًا محببًا ، وكان سمتُ الصالحين لك سمتًا ، ومن والى الله من أوليائه لك وليًا ، وما رضيه من الأشياء عندك مرضيًا ، ورأيت السوء حيث كان سوءًا ، واتخذت عدّو الله عدوًا ، وكنت من خاصة الله وخلصائه ، وأهل العلم بالله وإيقانه ، وانفتحت لك - بعد اليقين بالله - أبواب العلوم ، وكنت فى الأرض قيمًا من قيوم [1] ، الله الحى القيوم ، فقرت بالله عينك ، ويزيد بالله كل يوم يقينك ، وانشرح بمعرفته صدرك ، وعزّ بأمره ، سبحانه ، أمرك ، فلم تهبْ ، ولم تخشَ غيره ، ولم ترجُ من الخير إلا خيره ، وعلمت أنه سبب الخيرات الأول ، وأن بيده الفضل الكبيرالأطول ، فأمنت - بإذن الله - مسكنةَ الفقراء ، وامتلأتْ يداك من الغنائم الكبرى ، وكنتَ على ملوك الدنيا ملكا ، ونجوت - بإذن الله - من هلكة الهلكاء .

*** اليقين بالله ؛ ومصاحبة أهل الطاعة :**

ففى طلب اليقين بالله - يابنى - فا دأب ، ومن رجوت ، عنده على اليقين بالله عونًا ، فقارب واصحب ، فإنهم أُلفاءُ كل رحمة ، وقرناء كل حكمة ، لا يرغبُ لبيب إلا فيهم ، ولا تنزع نفس حكيم إلا إليهم ، فمن لم يكن منهم ، فاعرض عنه واتركه ، ومن كان منهم ، فاشدد يدك به وامسكه ، فإنه بلغنى أن حكيمًا من الحكماء قال لبعض من كان له علم كثيرمن القدماء : ياهذا ؛ لا ترينّ أنك علمت شيئًا ، وإن علمت كل شئ ، ما لم تكن عالمًا بالله الأول الحى ، الذى هو سببُ كل خيرٍكان أو يكون ، والذى تعالى ، عن أن تلحقه حركة أو سكون [2] .

---

(١) فى الأصل : من قوم ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه ، انظر مادة : «قوم» فى المعجم الوسيط ، ومشتقاتها : جـ ٢ / ٧٧٤ ، ٧٧٥ .

(٢) العلية أو الغائية أو السببية فى الفلسفة ، هو القول بأن للمعلولات علة أو سبب فى فعلها وإنشائها وتكوينها ، وكذلك الحركة والسكون دليل على حدوث العالم . عند الفلاسفة والمتكلمين .

*** إيمـــان الملحـــد بالله :**

ثم قـال : يا هذا ؛ إنى كنت قبل أن أعرفَ الله ، أروى وأظمأ بالطباع . فلما عرفت الله رويت بغير طباع ! . .

نعم روى ، فشفى بالهدى ، من حرِّ الغُلَّةِ والصدى ، ولما صار إلى اليقين بالله غنى بالله غنى الأبد ، وصار إلى الغنى الباقى المخلد ، وسكن اضطراب نفسه وقلقها ، إذ علمتَ يقينا أن الله هو ربها وخالقها .

*** أربــاب الحكمة مؤمنـون بالله ويدعـون إليه :**

وبلغنى أن حكيمًا آخر من حكماء الأولين ، كان فى أمةٍ تعبدُ الأصنام ، من الأمم الخالين ؛ **كان يقول** : من أيقن بالله إيقانًا نقيًا ، لم يزل بالله فى عاجل الدنيا ، ما بقى ، غنيًا وأيقن ليقينه بالله ، بكل حقيقة علم معلومِه ، وأدرك ليقينه بالله من العلوم ، كل ذات سرٍ مكتومة ، فاطلع بما ينوِّر الله من قلبه ، على خفى سرِّها ، وأمن أن تتعبده الدنيا برقٌ مسكنتها وفقرها .

*** الإقــرار بـأن معرفـة الله عقليــة :**

وبلغنى أيضًا ، عن بعض من تقدم وخلا ، من الأمم السالفة الأولى ، أنه كان يقول : لا يشكُ أحدٌ ولا يمترى ، ممن خلا ، لا ولا ممن بقى ، فى أن من جهل الصانع ، كان للعقوبة مستوجبًا مستحقًا ، نعم ، ولم يوقن عندى ، على أن لا يكون ممن يعرف من الحقوق كلها حقًا ، إلا معرفةً فاسدة مختلطة ، مقصرة عن التحقيق أو مفرطة .

*** حـال وصفـة مـن جهـل الصانـع :**

لأن من جهل ماكثرت دلائله وشهوده ، ووحد بمتظاهر الآيات ، فلم يُدفع وجوده ، حرىٌ حقيقٌ ، وجديرٌ خليق ، أن يكون بكل شئ جاهلاً ، وأن لا يعتقد من علم شئٍ طائلاً ، أما رأيت العامة ، لما هى فيه من الجهل بالله الأعلى ، إذ جهلت ما قلنا ، مما كثر الله على معرفته الأدلاء ، كيف قلّت بحقائق الأمور علومها ، وضلّتْ بعد جهلها ، بمعرفته حلومها ، فقالت فى دينها ، بكل قول متناقض مذموم ، لا يصحُ لفحش تناقضه فى الألباب ، ولا الحلوم ، فهى فيه دائبة تخبط كل عشواء ، وصادة

عن سبيل كل تقوى ، ترى معتقد باطلها فيه حقًا ، وزور قولها فيه على الله صدقًا ، وقبيحها فيه حسنًا جميلاً ، وجهلها به علما جليلاً .

فمن جهل الله ، تبارك وتعالى ، فلن يدرك بحقيقة من الأشياء إلا شبهًا أو خيالاً ، ولن يزال متحيرًا في الأمور خباطًا ، ومقصرًا في حقائق العلوم أو مفراطًا ، لا يقرُّ به قرار علمٍ فيسكن ولا يرك [١] لحقٍّ في حجته فيذعن ، ولا يزال مفتريًا على المحققين ، كذابًا ومدعيًا من الباطل دعوًا عجابًا ، ليس لها من الله ، سبحانه ، تصديق ، ولا يشهد لها في الألباب من برهانٍ تحقيق ، وإن كانت في نفس مُدعيها ذات حقيقة وبرهان ، فإنها في حقائق الأمور كسراب القيعان كما قال الله ، سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾[٢] .

انظر كيف يمثله – لإغفاله فيما يراه حقًا من باطله – بأمثاله من ذوى الظمى ، وبمن ينظر الظلماء فلا يرى يده ولايكاد ، فكيف يقود أو ينقاد له في الظلماء منقاد ! ١٣ظ / إلا أن يكون مثله عميًا ، لا يرى العمى قلبه شيئًا ، فهو ينقاد في ظلمة وعشواء ، لمن لا يبصر ولا يرى ، ولمن آثر الضلالة على الهدى ، فهو متورط في ورطات الردى ، يركب بعضه في كل هوة بعضًا ، رافضٌ لكل حقيقة رفضًا ، لا يسمع بكتاب الله به نداء ، ولا يقبل من الله فيه هدى ، مخبةٌ به في خبوتِ الضلالِ ركائبهُ ، عظيمة في هلكة الدين والدنيا مصائبه ، غير متحفظ من هلكاته بحفظ ، ولا متعظ من عبرات الله بوعظ ، غلقٌ بين طباقِ خطيئاته ، غرقٌ في بحور عماياته ، بما عطل من علم يقين الكتاب ، ورضى بصحبته ، من سلوك الارتياب .

فبالله يابنى فعد من موالاته ، والرضا بما رضى به ، من تعطيل ما عطل من كتب ربه وآياته ، وإذا أردت أن ترى عجائب الأنباء والأنبياء ، وتعلم فضل عدلِ حكم الله في الأشياء ، فاسمع من الكتاب ، ولا تسمع عليه ، واكتف بحكم الله على العباد

---

(١) في الاصل يرك : يعنى الرذل الضعيف فى عقله ورايه .

(٢) سورة النور : الآيتان ٣٩ – ٤٠ .

فيه ، فإنك إن تسمع عنه ، بأذن واعية ، ثم تقبل عليه منك بنفسٍ لحكمته راعية ، تسمع صوتًا منه بالهدى [1] حينًا ، وتعرف من جعله الله حيًا ، ممن جعله ميتًا .

فلعلك حينئذ ، عند معرفتك بالأشياء ، تهرب من الميتين وتلحق بالأحياء ، فتجد طيب طعم الحياة ، وتثق بالقرار فى محل النجاة ، فتنزل يومئذ منازل العابدين ، وتأمن الموت حينئذ أمن الخالدين .

* إبليـس والمعصيـة :

ففى مثل ذلك فارغب ، وله ما بقيت فانصب ، فللرغبة فيه وللحرص عليه استنزلّ إبليس أباك آدم فأغواه ، وبالخلد فى معصيته لله منّاه ، فقال له ولزوجه معه : ﴿ ... مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [2] وفى ذلك قاسمهما ، إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما ، كما قال الله ، بغرورٍ ، وكذبهما ، فيما مناهما به من الأمور ، فأعقبا ، برجاءهما فى المعصية ، ندمًا ، ونسى آدم ، ولم يجد الله له عزمًا ، كما قال ، سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [3] .

* الخلود فى الجنة لمن أطاع واتقى :

فلو لم يعص الله ، للبث فيها أبدًا ، ولو أطاع الله فى الشجرة ، لبقى فيها مخلدًا ، وكذلك يبقى فيها يوم القيامة ، وفى الأخرة الباقية الدائمة ، من أطاع الله فى هذه الحياة الدنيا ، وقام بما يجب لله عليه فيها ، من التقوى ، فيدوم فى الجنة له النعيم والتخليد ، ويبقى له ما هو فيه من عمها فلا يبيد ، فطاعة الله مفتاح الخلد فى الجنة ، واليقين بالله مفتاح كل طاعة وحسنةٍ ، فأيقن بالله تُحسنُ ، وأحسِن ،الله تؤمن .

* المؤمـن ، وحقيقـة الإيمـان :

وأعلم يابنى ، أنك لن توقن ، حتى تعرف الموقنين ، ولن تؤمن ، حتى تؤمن للمؤمنين ، ومن المؤمنين أبوك إبراهيم خليل الرحمن ، والمؤمن فمن آمنَ من كبائر

---

(١) بالأصل : بالهد .

(٢) سورة الأعراف : آية ٢٠ .

(٣) سورة طه : آية ١١٥ .

الكفر والعصيان ، وأعمال الموقنين من البر ، فدليل على إيقانهم ، وترك المؤمنين لكبائر الكفر والعصيان لله ، فحقيقة إيمانهم .

*** صفات المؤمنين في القرآن :**

فاسمع يابنى لخبر الله ، الذى لا كغيره عن يقينهم ، وماكانوا يعملون به لله فى دينهم من الصالحات ، ويسارعون فيه من الخيرات ، فإن يقول سبحانه : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾** [١] .

ويقول سبحانه : **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾** [٢] ويقول سبحانه : **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾** [٣] ، ويقول سبحانه : **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾** [٤] ، وقال سبحانه : **﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾** [٥] .

انظر كيف وصفهم الله ، سبحانه ، بالخشوع والدين بما نسبه مما سكّن قلوبهم من حقيقة اليقين ! . .

*** صفات أهل النار :**

فأولئك ، هم الذين وصفهم الله بالإيمان ، وخلاهم وسماهم به فى كتابه ،

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٥٧ - ٦١ .

(٢) سورة الأنفال : الآيات ٢ - ٤ .

(٣) سورة النور : آية ٦٢ .

(٤) سورة الحجرات : آية ١٥ .

(٥) سورة السجدة : آية ١٥ - ١٦ .

ودعاهم ، ولهم أوجب الجنان والرحمة منه ، واستحقوا الرضوان والعصمة ، فمن خرج عن صفتهم ونعتهم فغير مؤمنٍ ، ولا من المتقين [١] ، ولا مستوجب من الله الرحمة ، ولا الرضوان فى يوم الدين ، وداره غير دار المؤمنين ، ومثواه من النار مثوى الظالمين .

وقد زعم غيرنا أن من لم يؤمن ، كثير عصيانه ، فيكون لأحدٍ منه أمان بإيمانه ، ممن ذكر الله بالإيمان ، وملاّ إنه ولى لله ، سبحانه ، فيمن تولى ، خلافًا على الله ، ومشاقة ومجانبة لكتاب الله ومفارقة .

* فى نقد المرجئة :

وزعم ، أن الله لا يعذب من أقر به وبرسله وكتبه بلسانه ، وإن ارتكب كل كبيرة من كبائر عصيانه ، تمنيا على الله ، وافتراء واستكبارًا عن تبيانه واجتراء !

فاسمع يا بنى لقول الله فى خلافهم ، وما وصف ، فيما زعموا من خلاف "أوصافهم ، فإنه يقول سبحانه : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [٢] فلم يرضَ (الله) سبحانه ، منهم له بالتحكيم ، دون ما وصف من الرضا والتسليم ، فقال سبحانه : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] قالوا هم : بلى ، خلافًا على الله ، هم مؤمنون ، والإقرار بالله ورسله ، غير الرضا والتسليم لحكمه ، فأى خلاف لقائل أو اختلاف أو فرطٍ عن قول بغير حق ، أو إسراف أبين مما تسمع وترى مما قالوه جرأة وافتراء ؟!..

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [٤] واستئذانهم له غير إقرارهم بالله ورسوله ، فأين ما قالوا فى الإيمان ، ووصفوا ، مما قال الله به ، إن أنصفوا ؟!..

والله يقول ، سبحانه : ﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا

---

(١) فى الأصل : نعماعين .

(٢ ، ٣) سورة النساء : آية ٦٥ .

(٤) سورة النور : آية ٦٢ .

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١) فالله يقول : لا يؤمنون بالله ، إن استأذنوا ، وهم يقولون : بلى إن أقروا ، فقد آمنوا !..

فأى مجاهرة لله بخلاف ، أو مقالةٍ بغير حقٍ فى إسرافٍ ، أبين على الله خلافًا ، وفى قولٍ بغير حق إسرافًا من قول هذا مخرجه ، وسبيل أهله فى القول ومنهجه ؟!

أو ما سمعوا لقول الله ، تبارك وتعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ (٢) يخبر ، سبحانه ، أنهم لم يطيعوا أمر رسوله ويقبلوه ، ويفعلوا ما يامرهم به أن يفعلوه ، فليسوا مؤمنين به ، لا ، ولا بالله ربه ، ولا برسل الله وكتبه .

أو مَا سمعوا لقوله سبحانه : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (٣) .

يقول ، سبحانه ، لمن شهد من المهاجرين والأنصار بدرًا ، وكان له ولرسوله من عدوهما منتصرًا ، إن كنتم بما وصفت آمنتم ، فامضوا لما به أمرتم ، فإن لم تمضوه ، على (ما) نزلت من حُكمه ، فلستم بمستحقين لثواب الإيمان ، ولا اسمه .

فأى حجة لمحتج أقوى ، أو ضياء نور أضوى ، فيما اختلفنا ، ووصفوا ، مما تلونا جملاً لاتأويلاً ، ووحيًا أنزله تنزيلاً ؟!!.

فاسمع يا بنى عن الله ، تنزيل وحيه ، وما نزل فيه صراحًا مكشوفًا على نبيه ، فإنه يقول سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٤) .

فالله ، تبارك وتعالى ، يقول : وما أولئك بالمؤمنين ، وهم يقولون : بلى ، إذا كانوا

---

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٤٤ - ٤٥ .

(١) سورة الأنفال : آية ١ .

(٢) سورة الأنفال : آية ٤١ .

(٣) سورة النور : آية ٤٧ .

بالله ، وبما جاء من عنده مقربين ، وإنما أخرجهم الله من الإيمان بتوليهم ، وبذلك نزل وحيه فيهم ، وعليه عاتبهم ، لا على إنكار (هم) . ألا ترى أن قولهم : آمنا ، قول إقرار لم يدعهم إليه ، ولم يعاتبهم فيه .

*** أقسام الحق :**

فاعرف الحق يا بني ومن خالفه ، فإنك تعرف حينئذ الحق ومن ألفه ، واعلم أن معرفة الحق قسمان معلومان ، وجزءات عند المحققين مقسومان . .

أحدهما : معرفة الحق في نفسه ونعته ، وما أبانه الله به من ضياء بنيته .

والآخر : معرفة ما خالفه من الباطل ، والبراءة إلى الله ، من جهل كل جاهل .

*** ضرورة المعرفة حتى يميز المؤمن بين أولياء الله وأعدائه :**

فاعرفهما جميعًا ، تعرف الحق وتوقنه ، وتعرف قبيح كل أمر كان أو يكون ، وحسنه ولا تغترَّ بهما جاهلاً ، ولا تكن لواحدٍ منهما معطلاً ، فتجهل بعض الحق أو تعطله ، ولا يؤمن أن تركب بعض الباطل أو تفعله ، ومتى لا تعرف الباطل لا تتبرأ من أهله ، ومن لم يتبرأ من الباطل ، حلَّ من السخط في محله ، ومتى تجهل بعض الحق ، لا تؤمن من البراءة من المحق ، ومن تبرأ من المحق تبرأ الله منه ، ومن أعرض عنه المحقوق سخطًا لعرض الله عنه ، والمحقوق من خلق الله منهم المؤمنون ، والمؤمنون فهم ١٦ و / البررة الرحماء المتحابون ، والمتحابون فهو المحبون في الله ، لمن أحبهم وتولاهم ، والمعادون لمن حاد الله ربهم ومولاهم .

فاسمع يابني ، لما ذكر الله سبحانه ، في ذلك عنهم ، وعرّف أولياءه في ذلك منهم ، إذ يقول ، لا شريك له : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)** ﴾ [١] ؛ ويقول سبحانه : ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)** ﴾ [٢] .

---

(١) سورة التوبة : آية ٧١ .

(٢) سورة المجادلة : آية ٢٢ .

* **الــولاء والــبراء :**

ومحادة الله ، تبارك وتعالى ؛ فى حدوده ، خلاف المخالفين فيما حدد من أمره وعهوده ، فالله يقول ؛ سبحانه ؛ لاتجدوهم يقولون : بلى هم كثير موجودون !

والله يشهد ؛ سبحانه ؛ ومن قبل وحيه على خلاف ما عليه يشهدون ، وما فى كتاب الله من بيان خلافهم وشهادته بغير أوصافهم ، فكثيرٌ - بمنّ الله جمٌّ - يخصُّ من بيان الله فيه ويعمُّ ، وليس لقلةِ ذلك ولا عسره ، ولا لملتبس لبس من أمره ضل ، وغلبة سلطانهم قوى عليهم ، فيه سلطان شياطينهم فألفوه ، حتى أنسوا ، به لطولِ الصحبة ، وعزّ فراقه فى أنفسهم ، لما كان يكون من خلافه ، من الأنكال المعطبة ، ولما كان من جهله يومئذ لديهم ، متكلاً محرومًا عاد مجهوله يومئذ فيهم ، بعد جهله معلومًا .

ثم خلفت من بعدهم أخلاف السوء ، التى بتّ عدوانها للإسلام ، من وراء عداوة كل عدوٍ ، فكانت أكلف ، بما بين لها أسلافها ، كلفا وأشرفُ . فى الاحتجاج للباطل شرفًا .

* **فى وصف حال الجهلاء من المجبرة وغيرهم :**

فالله المستعان للمحقين عليهم وفيهم ، وفيما خالفهم فيه ، من حكم ربهم عليهم ، فقد أصبحوا وأمسوا عن الحق بكمًا وصمًا وعميًا ، وصاروا ، وهم وأئمتهم من بنى أمية [1] لأنفسهم فى ذلك داء دويًا ، لا يقبل شفاء (ولا يسوغ فيه ، ولا ينفع دواء الأشفية ، كما لا يسوغ فى البكم ، ولا فى العمى ، ولا فى الصم ، دواء ولا شفاء أبــدًا) [2] إلا أن يكون الله بشفائه متوحدًا ، وكذلك دواؤهم من الجهل والضلالة والكفر ، فلن يشفى منهم إلا بإكراهٍ من الله لهم على الإيمان وجبرٍ !.. وذلك فما لا يكون منه بعد أن أمرهم ؛ ولأنه لو كان منه بجبرٍ ، لكان إيمانًا لمن جبرهم ، وإذا كان له لا لهم ، كان فعله لا فعلهم ؛ لأنه منه لا منهم ، والإحسان فيه له دونهم .

فهذا - يابنى - فاعلمه من أمرهم ، ومما هم فيه من جهلهم وكفرهم ، وأعلم -

---

(١) فى الأصل : امته .

(٢) زيادة من الهامش .

يابنى – أن جهل الناس بالله وبدينه ، وما هم عليه من العمى ، على الله وعن تبيينه ، يدعيان جهلاً مضعفًا ، وعمًا مبيرًا متلفا ، لا يرجى إلا بالله لإهلهما مداومة .

وإنما قيل فى الجهل : إنه مضعفٌ ؛ لأن صاحبه لا يعرف ، ولايعرف أنه لا يعرف . فجهله هذا جهلان ، وهلكته بجهله هلكتان ، **بل لو قيل** : إن جهله هذا جهل مضعف أضعافًا ثلاثة متراكبه ، لكانت مقالة من قال ذلك ، فى جهله ، صادقة غير مكذوبة ؛ لأنه جهل ، فكانت تلك منه جهلا ، ثم جهل أنه جاهل ، فكانت تلك – لجهلهِ – مثلاً ، ثم رأى جهله جميعًا علما [1] ، فكان ذلك منه جهلاً ثالثًا وظلمًا .

وإنما قيل : إن عماه عمًا مبير متلف ، ليس له إلا بالله عنه زوال ، ولا تكشف ؛ لأن ١٦ و/ صاحبه لا يألم له ، ولا يجده فهو يريده دائبًا ويمده ، إذ لا يجدله فى نفسه ألمًا ولا يعدُّ عماه فيه عمىً ، فلذلك ما أراد دواؤه وقلّ من عماه شفاؤه ، ولو وجده فلمسه أو ألم بألمه ، فاحسه ، لطلب له الشفاء ، ولما كان مبيرًا متلفًا .

*** طلب العلم والمعرفة :**

ولو طلب – ويله – طب ما به من دائه ، عند من جعل الله عنده طبه ، من اهل الحق وأوليائه ، لوجد عندهم من ذلك ، شفاء له شافيا ، ونورًا لما عدم بصره كافيًا ؛ لكنه أصر عن آيات الله مستكبرًا ، وعدَّ عماه عن الله وعن تبيينه بصرًا ، فكانت مقالته على الله كاذبة ، ونفسه فيما بينه وبين الله للإثم كاسبة ، كما قال الله العليم ، بإصرار المصرين فى أمثاله من الآثمة المستكبرين : ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾** ﴾ [2] .

---

(١) فى الأصل : عليما .

(٢) سورة الجاثية : الآيات ٧ – ١٣ .

فكذلك هو فكما قال ، وإلا فمن سخَّره ؟!

هل ادعى تسخير ذلك أحد قط أو ذكره ؟!

لا . ولو ادعاه مدع ، إذًا لكان كذبه مكشوفًا ، ولكان كذبه فى كل قرنٍ - خلا أو بقى - من القرون موصوفًا ، وما ادعى ذلك فرعون فى جهله وعتوه ، ولقد ادعى غيره فى ملكه لنظرائه ، وما ادعى لهم خلقًا ولا صنعًا ، ولو ادعاه لكان ذلك كذبًا مستشنعًا ، وإنما تأويل قول فرعون : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ : أنا سيدكم ومليككم ، لا ما قال موسى ، ولم يرد أنا لكم ربٌّ خلاق ، ولا أنا لكم إلهٌ رزاق ؛ لأن كل رب فى لسان العرب ، فسيد ومليك ، ولا سيما إذا كان وليس له عند نفسه فيما ملك شريك .

أو لا تسمع ، يابنى ، وترى ، أنه لم يزعم أنه رب لغيرهم من أهل القرى ، التي لا ملك له عليها ولا سلطان له فيها !.. فلما لم يوقن بغير ، ولم يستدل على الله بتدبيره ، وكذَّب من الله بما لم تره عيناه ، وكان كل من صدقه مثله لا يوقن ، إلا بما عاينه ويراه وما كان لذلك مثلاً ونظيرًا قال : أنا ربكم ومليككم ، ولم يدع لهم صنعًا ، ولا تدبيرًا ، صُغرًا منه وتضاؤلاً عن تلك ودعواها ، فلما صغر عنها وتضاءل ، كان ادعاؤه لسواها مما يدخل فيه غلط وامتراء ، وما يمكن فى مثله له عندهم إلا دعاء ، ولو ادعى فيهم خلقًا ، أو انتحل لهم رزقًا ، لما اعترتهم فى كذبه مع تلك مرية ، ولا أعمتهم من الشبهة فى أمره معميةٌ . ولكنهم لما لم يوقنوا بالله وتدبيره ولم يقروا إلا بما رأوا (أو مثله) [(١)] ، مثله [(٢)] من فرعون وغيره ، وأنكروا ما لم يروا ، أو يكون مثلاً لما رأوا فدفعوه ، جاز عندهم ، لفرعون ولهم ، فى فرعون ما ادعوه .

فنحمد الله ، الذى حسر كل من أيقن أو تجبر ، عن أن يدعى من صنعه ، وإن جهله صنعًا ، فيكون فيه لشبهة ، أو تجبر لمبطل مدعًا ، وإن كان أثر التدبير فيه ، بأنه صنع مصنوع باديًا ، وكان هدى الله فيه ، لم [(٣)] يهتد إليه بالهدى مناديًا .

---

(١) زيادة من الهامش .

(٢) فى الأصل .

(٣) تكررت فى الأصل .

١٧ و / فنداؤه بإحـداث الله / لـه ،أعلى من كل على ، وتبـديه بأن صنع الله وتدبيـره [١] أبدى من كل جلى – فتبارك الله أحسن الخالقين خلقًا ، وأحق – من جميع الحقائق - متحققًا : (الذى لم يزل ، ولا يزال ، ومن له الكبرياء والجلال ، رب الأرباب المعظمـة ،وولىّ كل إحسان ونعمـة ، الأول) [٢] الذى ليس كمثله شئ ، وهو القوى العزيز القهار الغلاب : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ ﴾ [٣] .

اللهم ، وصل على جبريل أمينك ، وعلى ملائكتك المصطفين ، وعلى محمدٍ ، رسولك ، وعلى جميع المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

تم الكتاب

«الدليل .. بمنّ الله وتوفيقه

* * *

(١) فى الأصل : وتدبير .

(٢) زيادة من الهامش .

(٣) سورة آل عمران : آية ٨ .

أولاً

جواب في إمامة الإمام عليٍّ كرّم الله وجهه وخلافته

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل القاسم بن إبراهيم ، صلوات الله عليه ، عن إثبات الإمامة والخلافة ، لعلى بن أبى طالب ، صلوات الله (عليه) [١] ، فقال :

إنما يجب على الناس طاعة علىٍّ وتقديمه ؛ لفضل علىٍّ فى دين الله ، وسوابقه فى جهاد أعداء الله ، التى لم يبلغ مثله ممن كان مع النبى ، صلى الله عليه ، جميعًا بالغ ، ولم يلحق به ، ولم يكن من جميع أصحابه لاحق ، مع قرابته القريبة لرسول الله ، ﷺ ، وفضله فى العلم ، والفقه عن الله .

فإذا كانت فضائله فى الجهاد ، مما لاينكرها منكرٌ ، وكان فضل علمه على ما لا يدفعه له دافعٌ ، عالمٌ ولا جاهلٌ - إلا أحمق مكابر - وكان له من القرابة الخاصة لرسول الله ، ﷺ [٢] ، ما ليس لغيره ، **مع ماجاء من تتابع الخبر عن رسول الله ، صلى الله عليه** ، وتواتره فى إجلاله لعلىٍّ ، وإشارته إليه ، وقال من الأقاويل فيه ، ومن الدلائل على فضله ، ما لم يقل مثله فى غيرِه ، وفى تقديم على بالإمامة وتفضيله .

وكان من قدَّم غيره عليه ، فقد قدَّم المفضول على الفاضل ، وخالف فى ذلك الصواب الذى دلَّ عليه ، وبلغ من فهم ما فيه من الحكم الرشيد [٣] ، بتقديم المقدم ، وتأخير المؤخر ، مع خلاف أمر رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فى الدلالة على علىٍّ وفضلهِ ، ووضعَ الأمرَ فى غير معدنه [٤] ، وأهله .

تم ، والحمد لله كثيراً ،

وصلى الله على رسول الله ، سيدنا محمد ،

وأهله وسلم .

* * *

(١) ليست فى الأصل .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) فى الأصل : الرشد .

(٤) فى الأصل : معدن .

ثانيًا : في الرد على الملحد ..

وله أيضًا ، صلوات اللّه عليه :

الرد على الملحد ومناظرته له ، عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قـــيل : كان وافى مصر رجلٌ من الملحدين ، فكان يحضر مجالس فقهائها ، ومتكلميها ، فيسألهم عن مسائل الملحدين ، وكان بعضُهم يجيبُ عنها جوابًا ركيكًا [1] ، وبعضهم يزجره [2] ويشتمه ، فبلغ خبره **القاسم بن إبراهيم** وكان متخفيًا فى بعض البيوت ، فبعث صاحبَ منزله ، ليحضره عنده ، وأحضره ، فلما دخل عليه **قال له القاسم ، عليه السلام** - : إنه بلغنى أنك تعرضت لنا ، وسألت أهل نحلتنا عن مسائلك ، تريد أن تصيد أغمارهم [3] بحبائلك ، حين رأيت أن ضعف علمائهم عن القيام بحجج الله ، والذب عن دينه !

ونطقت على لسان شيطان رجيم ، لعنه الله ، وقال : ﴿ **لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (118)** ﴾ [4] .

69 ظ / **فـقـال الملحـد** : أما إذ عبت أولئك وعيَّرتَهُمْ بالجهلِ ، فإنى سائلك وممتحنك . فإن أنت أجبت ، وإلا فانت إذًا مثلهم .

قـال له القـاسم ، عليه السـلام :- قل مابدا لك ، وأحسن الاستماع ، وعليك بالنصَفة ، وإياك والظلم ، ومكابرة العيان ، ودفع الضرورات والمعقولات [5] ، أجبك عنه ، وبالله أستعين وعليه أتوكلُ ، وهو حسبى ، وكفى ونعم الوكيل .

---

(1) اى ضعيفًا هزيلاً .

(2) اى يدفعه وينهاه .

(3) اى تغوى المغرورين منهم وعوامهم .

(4) سورة النساء : آية 118 .

(5) أ- **الضرورى** :فى اللغة كل ما تمس الحاجة إليه ، وكل ما ليس منه بدٌّ ، وهو خلاف الكمالى ، وفى المصطلح هو الامر الدائم الوجود ، او الأمر الذى لا يمكن تصور عدمه ، وهو مرادف للواجب ، وضده الجائز ، وبينه وبين الممكن تضايف .

ب- أما المعقول :

(1) فهو مقابل المحسوس ، وهو ما يدرك بالعقل لا باخواس ولما كانت الحواس عرضة للكثير من الغلط والوهم والضلال ، كانت المعرفة اليقينية مؤلفة من المعقولات ، لا من المحسوسات .

(2) والمعقول فى بعض الفلسفات القديمة ، ولا سيما فلسفة افلاطون ، مرادف للوجود الحقيقى ، أو للشئ فى ذاته ؛ تقول : عالم المعقولات ، وهو عالم المثل المجردة الموجودة فوق العالم المحسوس .

(3) والمعقول ما يمكن إدراك حقيقته ، وفهم طبيعته ، ومعرفة اسبابه ، ويقابله التجريبى .

قال له الملحد عند ذلك : خبرنى ما الدلالة على أنه الصانع ؟

قال القاسم بن إبراهيم ، عليه السلام :- الدلالة على ذلك قوله فى كتابه ، عز وجل - : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) ﴾** [(١)] .

ووجه الدلالة فى هذه الآية ، فهو كون الإنسان ترابًا ، ثم نطفة ، ثم علقة ، لا تخلو هذه الأحوال من خلتين :

إما أن تكونَ محدثةٌ [(٢)] أو قديمةٌ [(٣)] ، فإن كانت محدثة ، فهى من أدلّ الدلالة على وحدانيته ووجوديته [(٤)] ، فإن كان كونها ، وهو معدوم بعلل منها :

* أن المحدثَ متعلق فى العقل [(٥)] المحدثة ، كما كانت الكتابة متعلقة فى العقل بكاتبها ، والنظم بناظمه ؛ إذ لا يجوز كتابة لا كاتب لها ، ووجود أثر لا مؤثر له فى الحسِّ والعقلِ .

* ومنها أن المحدث هوما لم يكن فكُوِّنَ ، فهو فى حال كونه ، لايخلو [(٦)] من أحد أمرين :

= (٤) قسم ابن سينا المعقولات إلى ثلاثة أنماط من الوجود ، وهى التى :

أ - وجودها متكثرة فى المحسوسات .

ب- وجودها فى العقل الإنسانى بعد الكثرة .

جـ- ووجودها فى عالم المعقولات قبل الكثرة .

(١) سورة الحج : الآيات ٥ - ٧ .

(٢) **المحدث** : ما يكون مسبوقًا بمادة ومدة ، وقيل ما كان لوجوده ابتداء **والحدوث** : عبارة عن وجود الشئ بعد عدمه .

(٣) **القديم** : يطلق على الموجود الذى لا يكون وجوده من غيره ، وهو القديم بالذات .

(٤) فى الأصل : وجودايته .

(٥) ربما كانت : العقول .

(٦) فى الأصل : يخلوا .

- إما أن يكونَ كوَّنَ نفسه وهو معدوم ، أو غيره كوَّنَهُ . فإنْ كان هو الذى كوّن نفسه ، لم يخلُ أيضًا من أحدِ أمرين :

إما أن يكون كوّن نفسه وهو معدوم [1] ، أو كونها وهو موجود [2] .

فإن كان كّونها وهومعدوم أُوجِدَ ، فمحالٌ أن يكون المعدوم أوجد نفسه وهو معدوم ، وإن كونها وهو موجود ، فمحالٌ أن يكونَ الموجود أوجد نفسه ، وهو موجود ! .. إذ وجود نفسه قد أغناه عن أن يكوِّنَ بها نفسه ثانيًا .

فإذا بطل هذا ، ثبت أن الذى كوَّنه غيره ، وأنه قديم ليس بمحدثٍ ، إذ لو كان محدثًا ، كان حكمه حكمَ المحدثِ .

وإن كانت الأحوال [3] قديمة ، فذلك يستحيل ؛ لإنانراها تحدث شيئًا بعد شئٍ فى حيز واحد ، فى نفس واحدةٍ .

ولو كانت كلُّها مع اختلافها فى أنفسها ، وأوقاتها قديمة ؛ لكانت الترابيةُ نطفةً مضغةً ثم علقةً عظمًا لحمًا إنسانًا فى حالة واحدة ! .. إذًا القديم هو الذى لم يكوَّن ، ولم يزل وجوده ، وإذا لم يزل وجود هذه الأحوال ، كان على ما قلت من كونه ترابًا ، مضغة ، لحمًا ، عظمًا ، إنسانًا فى حالة واحدة ، إذا الأحوال لم تسبق بعضها بعضًا ؛ ولأنها قديمةٌ ؛ ولأن كلَّ واحدٍ منها فى باب القدم سواءٌ .

وإذا استحال وجودُ هذه الأحوال ، معًا فى حين واحد ، فى حالةٍ واحدةٍ ، وثبت أنَّ الترابَ سابقٌ للنطفة ، والنطفة سابقة للحال ، التى معها صح الحدوث ، وأنتفى عنها العدم ، وإذا صح الحدثُ فقد قلنا : بدءً أن المحدث متعلق فى العقل بمحدثه .

---

(١) ١- **العدم ضد الوجود** ، وهو مطلق أو إضافى ، فالعدم المطلق هو الذى لا يضاف إلى شئ ، والعدم الاضافى ، او المقيد ، هو المضاف إلى شئ ، كقولنا : عدم الأمن ، عدم الاستقرار ، عدم التأثر ...

٢- **والعدم إما أن يكون سابقًا** ، وهو المتقدم على وجود الممكن ، وإما ان يكون لاحقًا ، وهو الذى يكون بعد وجوده .

(٢) **الوجود مقابل للعدم** ، وهو بديهى فلا يحتاج إلى تعريف إلا من حيث إنه مدلول للفظ دون نفسه .

مثال ذلك تعريف الوجود بالكون ، او الثبوت ، أو التحقيق ، أو الحصول ، او الشيئية ، او بما به ينقسم الشئ إلى فاعل ومنفعل ، وإلى حادث وقديم ...

(٣) **حال الشئ** : صفته وهيئته .. وفى اصطلاح المتكلمين يطلق على ما هو وسط بين الموجود والمعدوم ، وهو صفة لا موجودة ، بذاتها ولا معدومة ، لكنها قائمة بموجود ، كالعالمية ، وهى النسبة بين العالم والمعلوم .

قال الملحد : أنكرتَ أن تكونَ الأحوالُ محدثةً ، وأنّ المحيز التى هى الجسم قديمة ؟!

قال القاسم ، عليه السلام :- أنكرتُ ذلك ، من حيث لم أره منفكًا من هذه الأحوال بتةً ، ولا جاز أن تنفك ، فلما (لم) [1] أره منفكًا من هذه الأحوال ، ولا جاز أن تنفك ، كان حكم العينِ ، كحكم الأحوال فى الحدث .

قال الملحد : ولمَ ؟

٧٠ و / **قال القاسم ، عليه السلام** :- من قبل أن المحيز إذا كانت / قديمة ، وكانت الأحوال محدثة ، فهى لم تزل تحدث فيها الأحوال ، وإذا قلت : لم تزل تحدث فيها .. ناقضتَ [2] ! .. لأنَّ قولك : لم تزل . خلاف قولك : تحدث .

والكلام إذا ا جتمع فيه إثباتُ شئٍ ونفيه ، فى حالٍ واحد ، استحال ، وذلك أنها إذا لم تزل تحدث فيها ، فقد أثبتها قديمًا لم يزل يحدث فيها ، وإذا كان هذا هكذا ، فهى لم تسبق الحدث ، فقد صار الحدث قديمًا ؛ لأنه صفته الجسم ، الذى هو قديم .

وإذا كانت صفته ، استحال أن يكون صفته القديم ، الذى لا يخلو منها ، ولا يزول عنها محدثًا ، وهذا محال بيِّنَ الإحالةِ ؛ لأنَّ فيه تثبيتُ المحدث قديمًا ، والقديم محدثًا !! ..

قال الملحد : فما أنكرتَ أن تكونَ الأشياءُ ، هى التى فعلت الأحوال ؟!! .

قال القاسم ، عليه السلام :- بمثل ما أنكرتُ زيادتك الأولى ؛ لأنه لا فرق بين أن تكون هى الفاعلة ، وهى لم تسبق فعله ، أو تكون قديمةٌ ، لم تسبق صفاتِها .

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) نقض الشئ أفسده بعد إحكامه ، ونقض اليمين او العهد نكثه ، ونقض ما أبرمه فلان أبطله ، وناقض فى قوله مناقضة ، تكلم بما يخالف معناه ، وناقض غيره : خالفه وعارضه ، وتناقض القولان : تخالفا وتعارضا ، والكلام المتناقض هو الذى يكون بعضه مقتضيًا إبطال بعض .

والتناقض ، فى اصطلاح الفلاسفة ، هو اختلاف تصورين او قضيتين بالإيجاب والسلب . مثل قولنا (ب) ، (لا - ب) ، أو قولنا (ب) صادقة و (ب) غير صادقة أى كاذبة .

لأنَّ الفاعلَ سابقٌ لفعلهِ ، متقدمٌ له ، فكذلك القديم الذى لم يزل سابقٌ للذى لم يكن ؛ لأنَّ فى إثبات الفعل له ، إثبات بحدثِ فعله ، وهذا لم يسبق فعله ! .. فقد جمعت بينهما فى حالةٍ واحدةٍ ، وهذا مجال بيِّنُ الإحالةِ .

قال الملحد : فإنى لم أر كونه [1] شئٍ إلا من شئ ، فما أنكرت أن تكون الأشياء لم تزل يتكون بعضها من بعض ؟!. وما أنكرت أن يكون الشئ ، الذى هو الأصل قديمًا ؟!.

قال القاسم ، عليه السلام :- أنكرتُ أشدَّ الإنكار ، وذلك أن الشئ الذى هو الأصل ، لا يخلو من أن يكون فيه من الأحوال والهيئات والصفات ، مثلها فى فرعهِ ، أو ليس كذلك .

فإن كان فيه مثلها فى فرعه ، فحكمهُ فى الحدوثِ كحكمهِ ، وقد تقدم الكلام فى هذا المعنى ، ما فيه كفاية .

على أنَّا نجدُ الصورَ والألوان والهيئات والصفات بعد أن لا نجدها ، ووجود الشئ بعد عدمهِ ، هو أدلُّ الدلالة على محدثه .

فحدثنى عن الصورة [2] من أصل حدثت ؟!

فإن قلت : إنها قديمة . أحلتَ ، وذلك أنها لا تخلو من أمور ؛

١- أحدها : أن الصورة لو كانت قديمة ، لكانت فى هذا التصور الذى ظهرت الصورة فيه ، أو فى عنصره ، الذى يسمونه هيولا [3] .

فإن كانت فى هذا التصور ، الذى ظهرت الصورة فيه ، فإن فيها وقدلكم قواكم ، أنه قد يوجد [4] على خلاف هذه الصورة .

---

(١) فى الأصل : كونه .

(٢) * **الصورة** : صورة الشئ هى ما يؤخذ منه عند حذف المشخصات ، ويقال صورة الشئ ما به يحصل الشئ بالفعل .

* **والصورة الجسمية** : هى جوهر متصل بسيط لا وجود لمحله دونه ، قابل للأبعاد الثلاثة المدركة من الجسم فى بادئ النظر ؛ أو هى الجوهر الممتد فى الأبعاد كلها ، المدرك فى بادئ النظر بالحس .

* **والصورة النوعية** : هى جوهر بسيط لا يتم وجوده بالفعل دون وجود ما حل فيه .

(٣) الهيولى : لفظ قديم يونانى بمعنى الأصل والمادة ، وفى الاصطلاح هى جوهر فى الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال محل للصورتين الجسمية والنوعية .

(٤) فى الأصل : أن قد يجد .

وإن كانت فى الذى تسمونه هيولا ، فلابدَّ إذا ظهرت فى هذا المصور ، أن تكون قد انتقلَت عنه إلى هذا .

فإن قلت : انتقلت . أحلْتَ ؛ لأن الأعراض لا يجوز عليها الانتقال ، فظهرت عند اللبث .

* وفيه خلة أخرى ، وهى أنها لو كانت فى الأصل ، ثم انتقلت عنه إلي فرعها ، فقد جعلت لانتقالها غاية ونهاية [1] ، فقد صح حدث الذى انتقلت عنه هذه الأحوال .

فإن قلتَ : لم تزل تنتقلُ !

كان الكلام عليك ، فى هذا اللغو ، كالكلام الذى قدمناه آنفًا ، فى باب **لم تزل تحدثُ** .

* وفيه معنى آخر ، وهو أنكَ إذا جعلتَ الأشياءَ ، فى وهمك ، شيئين ؛ إذا أفردت كل واحد من صاحبه ، نقص ، وانتهى إلى حد ما ، وقلَّ . وإذا جمعت كلَّ واحد منهما إلى صاحبه زاد ، وانتهى إلى حد ما .

أفليس إذا (انتهى [2] فى حال) [3] وزاد فكثر ، أو نقص فقل ، فالنقص والزيادة يحدثان [4] بالنهاية عنه ، وإذا ثبت فيه النهاية ، ثبت فيه الحدوث !! ..

فقال الملحد : وما أنكرت أن تكون صورة التمرةِ والشجرة ، كامنة فى النواة ، فلما وجدَتْ ماشاكلها ظهرت ؟! ..

قال القاسم ، عليه السلام :- إن هذا يوجبُ التجادلَ ، وذلك أنا لو تتبعنا أجزاء النواة ، لم نجدْ فيها ما زعمتَ .

٧٠ ظ / * وشئ آخر وهو أنه لوجاز هذا لجاز أن تكونَ الأشياء كامنة منه في صورة الخنزير والحمار والكلب ، فيكونُ الإنسانُ إنسانًا فى الظاهرِ ، كلبًا حمارًا خنزيرًا فيلاً فى الباطن !! ..

---

(١) فى الأصل : ونهاية لها نهاية .

(٢)فى الأصل : وانتها .

(٣) تكررت فى الأصل .

(٤) فى الأصل : يحزان .

فإن قلتَ ذلك ، لحقتَ (بالطبائعية) [١] فإن شئتَ تكلمنا فيه على أنه قد ظهر من حمقهم لأهل العقول ما يرغبهم عن القولِ بمقالتهم .

قال الملحد : وكيف يجوز أن يكون الإنسانُ إنسانًا فى الظاهرِ ، وكلبًا حمارًا فيلاً فى الباطن ؟!! .

قال الملحد : فإن بينَ التمرةِ والنخلةِ والنواةِ مشاكلة ، وليس بين الإنسان والكلب مشاكلة !

قال القاسم ، عليه السلام :- لو كان بين النواة والتمرة والنخلة مشاكلة – مع اختلاف التشريحات – (لجاز) [٢] أن يكون بين الإنسان والكلب مشاكلة !

* ووجهٌ آخرَ ؛ وهوأن الصورة ، لو كانت فى الأصل نفسه ، لكان الأصلُ نفسه هو التمرة ؛ لأن التمرة إنما كانت من (تمرة) [٣] المصورات ، وعرفت من غيرها بالصورة !

فعلى هذا يجب أن يكون أصلها التمرة ، وهذا مكابرة العقولِ !.. لأنه لو كان هذا كذا ؛ لكان ظهورها فى نواتها ، (و) لعرف واشتهر وعمَّ [٤] ، ولم يستحل وجود صورتين معًا فى حين واحد .

قال الملحد : إن النواة هى تمرة بالقوة [٥] الهيولية ، أعنى أنها إذا انتقلت لم تنتقل إلا إلى شجرتها ، ثم إلى تمرتها ثم تعود إلى أصلها فتصير نواة فى وسطها .

قال القاسم ، عليه السلام :- لو كان هذا هكذا لكانت الطبيعة التى هى الأصل تمرة بالقوة ؛ لأنها إذا انتقلت انتقالاتها صارت تمرة !.. وهذه مكابرة واضحة ، وذلك يوجبُ عليك أن الأصل البحت تمرة خوخة باذنجان !.. لأنه جائز عندك الانتقال من صورة إلى صورة .

---

(١) بياض فى الأصل ، وهم فرقة يعبدون الطبائع الأربع ، أى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، لأنها أصل الوجود ، إذ العالم مركب منها .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) ليست فى الأصل .

(٤) فى الأصل : واعم .

(٥) القوة مقابلة للفعل ، ومعناها كما يقول ابن رشد : « الاستعداد الذى فى الشئ والإمكان الذى فيه ، لأن يوجد بالفعل » .

وإن كان حكم الأصول فى الهيئات خلاف حكم الفروع فسنقول فيه قولاً شافياً ، إن شاء الله .

قال الملحد : إن صح أن حكم الأصول فى الهيئات حكم الفروع ، تركتُ مذهبى فإنه قد عظمت عليَّ الشبهة فى هذا الموضع .

قال القاسم ، عليه السلام :- اعلم أن طُرقَ العلم بالأشياء مختلفةٌ ، فمنها مايعرفُ بالحسِّ ، ومنها ما يعرفُ بالنفس ، ومنها ما يعرفُ بالعقل ، ومنها ما يعرفُ بالظنِّ والحسبانِ .

١- **فأما الذى يعرف بالحسّ**: فطرقه خمس سمعٌ ، وبصرٌ ، وشم ، وذوق ، ولمسٌ [١] .

فالسمع طريق الأصوات ، والكلام والبصر طريق الألوان والهيئات ، والذوقُ طريق الطعوم ، والشم طريق الأرائح [٢] ، واللمس طريق اللين والخشونة .

٢- **وما يعرف بالنفس** : الخجلُ والوجدُ والسرور والحزن والصبر والجزع واللذة والكراهية ، ومأشبه ذلك من التوهم وغيره .

٣- **وما يعرف بالعقل شيئان** :

أ - **أحدهما** : ما يدرك بهيئته ؛ مثل تحسين الحسن ، وتقبيح القبيح ، وحسن التفضل ، وشكر المنعم ، ومثل تقبيح كفر المنعم والجور ، وما يجانسه من علم بدائه [٣] العقولِ .

ب- **والوجه الثاني** : هو الاستنباط والاستدلال ، الذى [٤] هو نتيجة العقول ، كمعرفة الصانع ، وعلم التعديل والتجوير ، والعلم بحقائق الأشياء .

٤- **وما يعرف بالظن والحسبان** : فهو القضاء على الشئ بغير دليل (قطعى ، أو بالقياس على غيره) [٥] .

---

(١) بلا أدوات عطف فى الأصل .

(٢) فى الأصل : الارايح .

(٣) فى الأصل : بداية .

(٤) فى الأصل : التى .

(٥) ليست فى الأصل .

إنما لخصتُ لك هذا كله ؛ ليكونَ عونًا لنا فيما (سنعرضُ) [١] من كلامنا ، ويكون أحدَ المقدماتِ التى نرجع إليها ، فكل شئ من هذه العلوم لا يصاب إلا من طريقه ، ولو حاولته [٢] من غير طريقه تعثر عليك وكُبتَ [٣] ، كمن طلب علم الألوان بالسمع ، وعلم الذوق بالعين .

٧١ و / فأما أحوال الأجسام فإن طريق المعرفة بها من جهة البصر ؛ والبصر لا يؤدى (من الرؤية) [٤] إلا الأجسام ؛ لأن الأجسام لا يجوز أن يخلو [٥] من هذه الصفات ، فيتوهمه ويمثله فى نفسه خاليًا منها ؛ فإذا لم يجز ذلك ثبت أن الأجسام لا تخلو من هذه الصفات [٦] ، وأنه لا يجوز حكم أصولها إلا كحكم فروعها .

قال الملحد : إنهم زعموا : إن علة كون الأشياء وفسادها حركات الفلك ، وسير الكواكب .

* وبعضهم يقول : إن علتها تماذج الطبيعتينِ ، أعنى الظلمة والنور .

* وبعضهم يقول غير ذلك .

قال القاسم ، عليه السلام :- الدليل على فساد قولهم ، قول الله ، تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ [٧] .

وقوله : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [٨] ، فلو كان علةُ كونهِ ما ذكروا ، لكان الإنسان لا يتوفى أحد فى طفولته ، ولا يفسد كونه مع وجود علةِ كونه ، اللهم إلا أن يقرّوا بحدوث علةِ الفساد ، فيكونوا حينئذ تاركين .

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) فى الأصل جاوله .

(٣) أى بهتَ وغلبت عليك الشبهة .

(٤) فى الأصل مطموسة .

(٥) فى الأصل : تخلوا .

(٦) أى الأجزاء والألوان والهيئات .

(٧) سورة الحج : آية ٥ .

(٨) سورة يس : آية ٦٨ .

فإن قالوا : بل علةُ [1] كونه وفساده قديم ، فالشئ ، إذا كان فاسداً فى حالٍ كان فيها صالحًا ، إذ عللهما موجودة ، ومحال أن يكون عللهما موجودة ، ويتوفى هذا فى الطفولية ، ويردُّ هذاإلى أرذل العمر ، وينكس هذا فى الخلق أويعمر ، إن هذا – لعمرى – لعكس العقول .

قال الملحد : لو لزمهم هذا ، للزمك ؛ حين زعمت أن اللهَ علة كون الأشياء وفسادها ، مثل ما ألزمت خصومك .

قال القاسم ، عليه السلام :- ولا سواء ، وذلك أنا لا نزعم أن الله علةٌ كون الأشياء وفسادها ، بل نزعم أن الله هو الذى كوَّن الشئ وأفسده ، من غيرما أضطرار .

والدليل على أن الله ، عز وجل ، ليس بعلة ذلك ، أنَّ أفعاله مختلفة الأحوال ، مستقلة الصفات ، فلو كان هو العلة ما زال شئ عن صنعته ؛ لأنه ، عز ذكره ، قديم ، والقديم لو كان علةَ شيءٍ ، لم يزل معلوله ، كما لم يزل هو فى ذاته ، وفى زوال الأشياء ما يدل على أن الله ، عز وجل ، ليس بعلةٍ ولا معلول.

قال الملحد حينئذ : بارك الله فيك ، وفيمن ولدك ، فقد أوضحت ماكان ملتبساً علىَّ ، وإن سألتك عن غيرها فإن أجبتنى عنها ، كما أجبتَ ، أسلمتُ .

قال القاسم ، عليه السلام :- إن أسلمت فخير لك ، وإن أصررت فلن يضرَ الله إصرارك ، سَلْ عما بداك [2] .

قال الملحد : ما الدلالة على أن صانع العالم واحد ؟

قال القاسم ، عليه السلام : لو كان أكثر من واحد ، لم يخلُ من أن يكون كل واحد من الصانعين حيـاً قادراً ، وليس كذلك ، فإن كان كل واحد منهما حيًا قادراً ، لم يكن محالاً ، متى أراد هذا خلق شئ ، أن يمنعَهُ الآخر من خلقه ،

---

(١) العلة عند الحكماء ما يتوقف عليه وجود الشئ ويكون خارجًا ومؤثرًا فيه ، وعلة الشئ ما يتوقف عليه ذلك الشئ ، وهى قسمان : **الأول** : ما يتقدم به الماهية من أجزائها ، ويسمى علة الماهية .

والثانى : ما يتوقف عليه اتصاف الماهية المتقومة بأجزائها بالوجود الخارجى ، ويسمى علة الوجود .

(٢) اى بدالك .

لذلك الشئ بعينه ، ولو منعه صاحبه من ذلك كان الممنوع عاجزاً وذلك عجزه على حدثه !

وإن تمانعا ، وتكافأت قواهما ، وقع الفساد ، ولم يتم لواحد منهما خلق شئ ، ودخل على كل منهما العجز ، إذ لم يقدر كل واحد على مراده ، فلما وجدنا العالم منتظماً منسق التدبير ، دلّنا أن صانع ذلك ليس باثنين ولا فوق ذلك [1] .

قال الملحد : ما أنكرت أن يتفقا ويصطلحا ؟

قال القاسم ، عليه السلام :- إن الاتفاق والاصطلاح ، يدلان على حدث من غيرهما ؛ لأنهما لا يتفقان إلا عن صرفةٍ ، والمضطر محدث لا محالة .

قال الملحد : إنهم يقولون إن صانع الخير لا يأتى بالشرّ أبداً ، وكذلك صانع الشر لا يأتى بالخير أبداً .

قال القاسم ، عليه السلام :- إن هذا مكابرة العقول .

قال الملحد : وكيف ذلك ؟ [2]

قال القاسم : لا ذلك يدعو إلى القول بان أحداً لم يذنب قط ثم يعتذر من ذنبه ، وإلى القول بأن إنساناً واحداً لم يكذب ولم يضل ولم يهتد !

٧١ ظ / ألا ترى أنهم يزعمون أن استدلالهم حق ، وأنه واجب على الناس الرجوع إلى مذهبهم ، فإن كان الشئ الواحد .

لا يأتى بالخير والشر فحدثنى من يدعون مذهبهم ؟!

فإن قالوا : الخيّر .

قيل : فإن الخيّر لا يضل أبداً !

وإن قالوا : الشرّ .

---

(١) دليل التمانع دليل قرآنى وهو مشهور ومعروف عند المتكلمين انظر الأشعرى : اللمع ، ص ٢٠ ، والماتريدى : التوحيد ، ص ٢١ ، وانظر : الآية ٢٢ من سورة الأنبياء .

(٢) اعتقد ان للكلام تماماً هو (وهم يقولون أن من يفعل الخير لا ياتى شراً ، ومن يفعل الشر لا ياتى خيراً ابداً ، وكل مطبوع على ما خلق) .

فإن الشر لا يهتدى أبداً ! . .

فليت شعرى ، ما هذا الذى يدعونه إلى مذهبهم ؟!

قال الملحد : لعمرى ، لقد لطفت فى الاستخراج على القوم ، ولعمرى إن هذا مما يقطع شغبهم ، ولكنهم يقولون : لما كان فى العالم خير وشر دلنا على أنهما من أصلين قد يمين .

قال القاسم ، عليه السلام :- أما وجود الخير والشر فى العالم فإنا نجده ، إلا أن هذا [1] يدلنا على أن صانع العالم واحد ، والدليل على ذلك ، أن الخير والشر يبعثان على الخير والشر ، ووجدناهما محدثين ، وقد قدمنا الكلام فى هذا المعنى بما [2] فيه كفاية ، وبيّنا أن العالم أصلهُ وفرعه محدث ، وأن المحدثَ يقتفى المحدِثَ .

وإن كان حكم فاعله كحكمه ، أوجب ذلك حدوث صانع العالم ، ويقتضى المحدث ، فإن كان هذا هكذا فلكلٍّ صانع صانعٌ إلى ما لا نهاية ، وقد بينا فساده آنفًا .

* ووجهٌ آخر وهو أن الخيرَ والشرَ ، أمر إختلافهما يدل على قدمهما ، وليس اختلافهما بأكثر من اختلاف الصور والهيئات .

وقد قلنا : إن اختلافهما يدل على [3] قدمهما من خالف بينهما ، واخترعهما مختلفين [4] .

* فلو كان الخيرُ والشر مجتمعين فى حيزٍ [5] واحد فلا يخلو أنَّ فى حال اجتماعهما من أمور :

(١) **إما أن يكون** اجتمعا بأنفسهما ، أو جمعهما غيرهما ، فإن كان اجتمعتا بأنفسهما ، فمخالف ذلك أنهما (ضدَّان) [6] ، والضد ان لا يجتمعان

---

(١) فى الأصل : هنا .

(٢) فى الأصل : ما .

(٣) مكررة فى الأصل .

(٤) فى الأصل ، واخترعها مختلفة .

(٥) فى الأصل : حين ، والحيز عند المتكلمين هو الفراغ المتوهم الذى يشغله شئ ممتد ، كالجسم غير ممتد كالجوهر الفرد .

(٦) ليست فى الأصل .

بأنفسهما ، مع أنا نشاهد نفورهما ، وفرار كل واحد منهما من صاحبه ، فإذا فسد ذلك لم يبق إلا جامعًا جمعهما .

(٢) ووجهٌ آخر ، وهوانه لو كان وجود الخير والشر ، إلا على أن لهما أصلين قد يمين ؛ لكان وجود الصانعِ الأربع دالاً على أن لها أصولاً قديمة !.. وإذا كان هذا هكذا دلنا على أن شاهداً شاهدُ زورٍ !!

قال الملحد : فإذا لم يكن العالم قديمًا ، ولا كان مزاجُ[١] الاثنين ، وكان صنعًا من صانع قديم فحدثني : لم خلق الله هذا العالم ؟

قال القاسم ، عليه السلام : إن هذا الكلام فرع من أصل ، فإن سلمت لى الأصل كلمتك فيه ، وإلا نازعتك فى الأصل .

قال الملحد : وما ذلك الأصل ؟

قال القاسم ، عليه السلام :- هو ان تعلم بالدلائل أن العالمَ محدث ، وأن له محدثاً ، ثم تعلم أن محدثه واحد قديم ، ثم تعلم أنه قادرٌ حى حكيم فى نفسه وفعله .

قال الملحد : قد دللت على الصانع ، وعلى أنه واحد ، فما الدليل على أنه قادر ، حى حكيم ؟!

قال القاسم ، عليه السلام :- الدليل على ذلك ، أنا وجدنا الفعل واقعًا ، دلنا ذلك على أن صانعه حكيم ، عالم قادر حى .

قال الملحد : فهل وجدت الفاعل الحكيم لقادر سوى الإنسان ؟

قال : لا .

قال : أفتقول : إنه إنسانٌ

قال : إنى وإن لم اجد إلا إنسانًا فلم يقع الفعل منه ؛ لانه إنسانٌ ، إذ قد وجدنا إنسانًا ؛ يتعذر عليه الفعل ، فلما وجدنا[٢] متعذرًا عليه ، دلنا ذلك على جواز وجود فاعل ليس بإنسان .

---

(١) فى الأصل : مراح .

(٢) لعلها : وجدناه .

الا ترى أنا لما قلنا : إنه لا يجوز كون الفعل إلا من قادر حكيم ، جائز منه ذلك ، وكان قولنا فيه مستمرًا ، ولم يستمر القول فى ذلك [1] ، لم نقل !!

قال الملحد : قد أبلغت فى هذا ، فترجع إنْ شئتَ إلى مسألتى .

قال : سـل .

قال : لمَ خلق الله العالم ؟

٧٢ و / قال القاسم ، عليه السلام :- قال الله ، سبحانه : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [2] .

وقال : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [3] ، وقال : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ [4] ، فأخبرنا أنه خلقنا للعبادة والابتلاء ، ليبلغَ بنا إلى أرفع الدرجات وأعلا [5] المراتب .

قال الملحد : فمادعاه إلى خلقنا ألحاجةٍ خلق ؟!

قال القاسم ، عليه السلام : **قولك** : ما دعاه ! .. فمحال ، وذلك أنه لم يزل عالمًا بلا سهو ولا غفلةٍ .

* **فقولك** : ما دعاه . محال ؛ لأن الدعاء ، والتنبيه ، والتذكير إنما يحتاج إليها الغافل ؛ فأما الذى لا يجوز أن يغفل ، فمحال أن يدعوه شئ إلى شئ ؛ إذ لا غفلة هنالك ولا سهو . والدلالة على ذلك ، أن الغفلة من الدلالة على الحدوث ، وقد قامت الدلالة على أنه قديم .

* **وأما قولك** : الحاجة خلق . فالحاجة أيضا من صفات المحدثين .. والقديم يتعالى عنها .

قال الملحد : فلمَ خلق ؟!

قال القاسم ، عليه السلام : أما قولك : لم خلق ؟! فقد أجبتك ؛ لأن قولك لمَ؟.. وقولى : لأنَّ . إجابة !

---

(١) أى فى الإنسان .

(٢) سورة الملك : آية ٢ ، وزاد فيها « هو ... » .

(٣) سورة الذاريات : آية ٥٦ .

(٤) سورة الجاثية : آية ١٣ .

(٥) فى الأصل : أعلى .

قال الملحد : فما وجهُ الحكمة فى خلق العالم ، وخلق الممتحنين ؟!

فقال : وجهُ الحكمة فى ذلك أنه إحسان أو داع إلى إحسان ، وكل من أحسن ، أو دعا إلى إحسان ، فهو حكيم فيما يصرفه .

قال الملحد : وكيف يكون حكيمًا من خلق خلقًا فآلمه بأنواع الآلام ، وامتحنه بضروب من الامتحان ؟! .. خبرّنى عن وجه الحكمة فى ذلك من الشاهد .

قال القاسم ، عليه السلام : أما قولك : كيف يكون حكيمًا ، من خلق خلقًا فآلمه بأنواع الآلام ؟! ..

فوجه الحكمة فى ذلك من الشاهد ، ما هو داع إلى الإحسان [1] من ذلك ضرب المؤدبين للصبيان ، ومن الحجامة والفصد ، وشرح الأدوية الكريهة ، كل ذلك داعية إلى الإحسان ، وإلى شئ حسن فى العقل ، فإذا كان من الآلام فى الشاهد ما هو كذلك ، فكل ماكونه الله ، من قبل ، مثل الموت والمرض والعذاب وغيره ، حكمة فى الصنع وصواب فى التدبير ، إذ كان كل ذلك داعية إلى الإحسان .

قال الملحد : ما الدليل على أن ذلك داعية إلى الإحسان ؟!

قال القاسم ، عليه السلام : الدليل على ذلك أنها أفعال الحكيم ، وقد صح أن الحكيم إنما يفعل هذه الأشياء ، التى هى الترغيب فى السلامة والصحة والخير ، والترهيب من الغم والشر والنقم ، ومن رغب فى الخير فحكيم فيما نعرفه .

* **وأما قولك** : لمَ امتحن امتحانات غصب أكثرهم عندها ؟!

فإنا نقول فى ذلك ، ولا قوة إلابالله ؛ إن الله تعالى إنما امتحانه وأمره ونهيه وداعيه له من الحكمة ، فمن غصب فمن قبل نفسه ؛ لأنه لم يأتمر بما أمره الله سبحانه ، ولا انتهى عما نهاه ، ولو كان انتهى عما نهاه الله عنه ، وركب ما أمره به ؛ لكان يؤديه ذلك إلى الفوز العظيم . فهومن قبل نفسه غصب ، لا قبل الله ، عز وجل .

ومثل ذلك فيما نعرفه أن حكيمًا من حكمائنا لو أعطى عبيداً له دراهم ، وقال

---

(١) قارن فى ذلك ، ما ذكره بعد ذلك القاضى عبدالجبار : شرح الأصول الخمسة ، ص ٤٩٣ ومابعدها .

لهم : ائجروا فإن ربحتم ، ولم تفسدوا ، فأنا معطيكم ما يكفيكم ، وإن لم تفعلوا عاقبتكم .

فأطاعه منهم قوم ، وعصاه آخرون ، ولم ترجع اللائمة عليه بعصيانهم إياه ، ولكنها لاحقة بهم حين عصوه ، ولم يخرج بها سيدهم ، إياهم وعطيتهم ، من الحكمة ، إذ لم يدعهم به إلا إلى الإحسان ، فلما كان ذلك كذلك ، كان الله حكيمًا بامتحانه وأمره ونهيه .

قال الملحد : إن الله يعلم ما هم صائرون إليه ، ونحن لا نعلم ذلك .

قال القاسم ، عليه السلام : إن الجهل والعلم لا يحسن (الحسن) [1] ، ولا يقبح ٧٢ ظ / القبيح ، وذلك أنه لو كان حسنًا ؛ لأن الآمر به يعلم أنه يفعله ؛ لكان ذلك . قبيحًا ، إذا كان الأمر منا بما يصير إليه المأمور جاهلاً ، فلما لم يكن ذلك قبيحًا لجهل الآمر منا ؛ لأنه إنما أمر بالحسن ، ودعا إلى الحسن ، وإن كان [2] جاهلاً بما يصير إليه المأمور أو عالمًا .

* وشئٌ آخر ، وهو أنه لو كان الامتحان قبيحًا ، إذا علم أنه يعصى ، لكان لا شئ أقبح من إعطاء العقل ، لأنه إنما يعصى عند وجوده ، ويستحق المدحِ والذم به ، فلما كان إعطاء العقل عند الأمم كلها . موحدها وملحدها - حسنًا ؛ دل ذلك بأن الامتحان والخلق والأمر بالحسن ، كله حسن ، علم أنه يعصى أو يطيع .

قال الملحد : فلمَ مزج الخير بالشر ، ولم صار واحدٌ غنيًا وواحد فقير ، والآخر قبيحًا والآخر حسنًا ؟!

قال القاسم ، عليه السلام : لأن هذه الدار ، دار امتحان وابتلاء ، وحقيقة الامتحان فهو أن يخلق فيه ، أو يأمره بشئ ثقيل على طاعته ، فينظر هل يطيع أم لا يطيع ؟!

ولو خلق الله ما هو خفيف على طباعه ، ثم أمره بالخفيف ، لكان ذلك لذّة له ، وليس بامتحان ، فلما كانت هذه الدار ، دار ائمتحان ، كان الواجب في صواب التدبير ، أن يمزج الخير بالشر ، والنفع بالضر ، والمكروه بالمحبوب ، والحسنة

---

(١) ليست في الأصل .

(٢) تكررت في الأصل .

بالسيئة ، والكريه المنظر بالحسن فى النظر ، إذا كان الدار دار امتحان ؛ لأنه لو كان كله محبوبًا ، كان دار الثواب ، ولو كان كله مكروهًا ، كان دار العقاب ، ودار الثواب والعقاب هذه صفتها .

واعلم أنه لو لم تعرف علل ذلك ، كان جائز من ذلك أنه فى بدء [1] الأمر ، إذا أقمت الدلالة على أنه حكيم فى نفسه وفعله ، ثم دللت على أن الكل من أفعاله حكمة استغنت عن معرفة علله .

ومثال ذلك من الشاهد أنا لو هجمنا على آلات من آلات الصانع ، فرأينا أعوجاج المعوجات ، واستواء المستويات ، وصغر بعضها وكبر بعضها ، وغلظ بعضها ورقّة بعضها ؛ فحكمنا على صانعها غير حكيم ؛ لكنا جاهلين بالحكمة ، نضع الحكمة فى غير موضعها ، بل حينئذ الواجب علينا ، أن نسلم للحكماء حكمهم ، ونعرف أنهم لا يفعلون شيئًا من ذلك ، إلا لضرب من الحكم يعرفونه ؛ ونعلم أن المعوجً والمستوى ، وكل زوج فيها ، يصلح له الآخر ، فحينئذ وضعنا الحكمة فى موضعها ، فاعرف ذلك وتبينه بحدةٍ ، كما قلنا إن شاء الله تعالى .

فلما كانت أفعال الله كلها إحسانًا ، أو داعية إلى الإحسان ، كان ، تبارك وتعالى ، بفعلها كلها حكيمًا ، إذ كل ذلك يحسن فى العقل .

فإن قلت : لمَ فعل الحسُن فى العقل ؟

قيل لك : يفعل الحسن لحسنه ، ولو لم يفعل الحسن فى العقل لحسنه ، كان لا يترك القبيح لقبحه فى العقل ، وكفى بهذا القول قبحًا .

قال الملحد : نفذ أبلغت ، قد بينت لى مسائل .

قال : سل .

قال : ما الدليل على أن الصانع له رسول ؟

قال القاسم ، عليه السلام : الدليل على ذلك أن الصانعَ حكيم محسن إلى خلقه ، وفى العقل أن شكر المنعم واجب ، فلما كان هذا فى عقولنا واجبًا ، وكان الله حكيمًا

---

(١) فى الأصل : بدى .

منعمًا على خلقه ، كان من كمال النعمة أن أرسل إليهم الرسل ، مع دلائل اضطرت العقول عندها ؛ لتبين لهم كيفية شكره ، لأن كيفية شكره ليس مما يعلم بالعقل ، ولا بالنفس ولا بالحس ولا بالنظر ، وإن كان فى العقل جوازه ، وحينئذ أقام عندهم ، (فمنهم)[1] دلائل ومعجزات دل على صدقهم .

قال الملحد : كأنك تقول إن شرائع الأنبياء خارجة عن العقول ؟! .

إذ قلت : لا نعلم كيفيتها .

قال القاسم ، عليه السلام : أما قولك : إنَّ شرائع الأنبياء خارجة عن العقول ، إذ ليس فيها كيفيتها ، فإنى لم أقل لك : كيفيتها ليس فيها تكون (بينة) اشترطت لك .

٧٣ و / **فقلت لك** : إنه وإن لم يكن فيها كيفيتها ففيها جواز كونها .

فقال الملحد : وكيف ذلك ؟

قال القاسم ، عليه السلام : هو مثل ما نعرفه فى الشاهد ، وذلك لو أن سيداً أمر عبده ببناء دار ، أو قطع شجرة ، أو إعطاءِ عبد الله ، أو ضرب زيد ، فإنه ليس فى العقل أن السيد يأمر به ، فإذا أمر به ، كان فى العقل أن الائتمار به حسن وأن تركه قبيح ، إذا كانت لأمر سيده عاقبة محمودة ، ورجع نفع إلى العبد .

فالعقل يجوز الأمر فكل شئ على خياله ، ولا يوجب شيئًا من ذلك دون شئ ، إذا كان ذلك الأمر مما ينقل حاله ، فى العقل ، وذلك أنه قد يكون الشئ إلى موضع ما ، حسنًا فى العقل ، اذا كان للشئ معنى حسن .

فأما اللواتى يُدركُ حكمها فى العقل ، فقد أدركه ، بأن الأمر بها ، لا يأمره إلا بما هو حسن ، ولا ينهى إلا عما هو قبيحٌ عنده .

قال الملحد : فحدثنى عن الصلاة والصيام ، وغيرهما من الشرائع ، هل له أصلٌ فى العقل ، يفرعُ هذا منه ؟!

قال القاسم ، عليه السلام : أجل قد أخبرتك به آنفًا ، وهو كالأمر بالشئ إلى

---

(١) تكملة من الهامش .

موضع ما ، وكضرب زيد ، وإعطاء عبد الله ، ليس له أصل فى العقل ، أكثر من الائتمار [1] لأمر الحكيم ، ووجهُ الحكمة فيه أنَّ الآمر إنما يأمر به ، لينظر هل يأتمر به المأمور ، فيجازيه لذلك ، لا سيما إذا كان الآمر مستغنيًا ، غير محتاج ، إلى ما يأمر به ، وإنما يأمرهم ليمنحهم ، وليظهرَ بذلك أعمالهم ، فإن الأمر به حسن ، وعلى ذلك سبيل الشرائع كلها .

قال الملحد : خبرنى عن كيفية معجزاتهم ؟

قال القاسم ، عليه السلام : هو قلب العادات ، وأن لا يترك العادات جاريه على مجراها .

فإذا جاء أحدهم ، وقال له قومه : ما الدلالة على كذا وكذا ، إلى كذا أو كذا ؟! فحينئذ يعرفون صدقه ويضطرون ، وهذه سبيل المعجزات كلها .

ومثل ذلك نفرق بين النبى والمتنبئ ، وبين الصادق والكاذب .

قال الملحد : فإنه بقى فى قلبى شبهة ، فأحب أن تقلعها بحسن رأيك ونظرك .

قال القاسم ، عليه السلام : هاتها ، لله أبوك .

قال الملحد : خبرنى عن الله ، عز وجل ، لم يميتُ الإنسان ، ويصيرُه ترابًا ، بعد أن جعله ينطق بغرائب الحكمة ، وبعد هذه الصورة العجيبة البديعة ، ولمَ يفنى العالم كله ، أرأيت لو أن إنسانًا بنى بناء فنقضه لا لمعنى ، هل يكون حكيمًا ؟!

قال القاسم ، عليه السلام : ليس الأمر كما ظننته ، أرأيت لو أن إنسانًا بنى بناء للشتاء ، فلما جاء وقت الصيف نقضه ، وبنى للصيف ، هل يكون حكيمًا ؟!

قال : نعم .

قال : ولمَ ؟

قال : لأن الذى اتخذه للشتاء لا يصلح للصيف ، وكذلك الذى اتخذه للصيف لا يصلح للشتاء .

---

(1) فى الأصل : الأتمر .

قال القاسم ، عليه السلام : وكذلك الله ، عز وجل ، خلق الدنيا ، ومافيها للابتلاء ، فإذا انتهى إلى أجله أفناها وبعثرها .

ثانيًا : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾[١] .

ولا يكون ذلك خروجًا من الحكمة بل الحكمة أن لا يضيع الثواب والعقاب .

قال الملحد : إن التوحيد ، والتعديل ، والرسل قد تكلم فيه ناس من أهل العلل ، وكل يشك فى الميت هل يحيى أم لا ؟ ، وكل يجئ فى ذلك بشئ ، فإن دللت على ثباته وكيفيته ، لم يبق لى مسئلة وحينئذ آمنتُ بربى .

قال القاسم ، عليه السلام : أما الدلالة على حياتها فإنى قد وجدت الله ، تبارك وتعالى ، حكيمًا قد امتحن خلقه وأمرهم ونهاهم ، وكان قول من يقول بإرادته الامتحان ، داعيًا إلى الإهمال ؛ والإهمال داع إلى أن الله غير حكيم ، وإذا جاز أن ٧٣ ظ / يكون العالم قديمًا ؛ لأنه لا فرق بين أن يفعل من ليس بحكيم هذا الصنيع العجيب ، وبين أن يقع فعل الآمر ، ومحال موجودة ، فتكون قديمة أزلية لا فاعل (لها)[٢] .

ووجدت هذا القول داعيًا إلى التجاهل ، فلما كان ذلك كذلك صح أن الله حكيم ، والحكيم لا يهمل خلقه ، وإذا لم يهمل خلقه ، لم يكن بد من أمر ونهى ، ولم يكن بد من مؤتمر وغير مؤتمر .

وإذاكان من حكم العقل ، أن نفرق بين الولى والعدو ، ووجدنا أعداءه وأولياءه مستوية الأحوال فى الدنيا ؛ لأنه كما أن فى الأعداء من هو مؤثر[٣] صحيح ، وفيهم من هو معسر مريض ، وكذلك الأولياء ، فلما كانت فى الدنيا أحوالهم مستوية ، ولم يكن بد من التفرقة بينهما ، صح أن دارًا أخرى فيها نفرق بينهما ، وفيها يحيون وفيها ينشرون .

إذا قد وجدت هذه الحال قد اشتمل بالكل ، الولى والعدو ، وذلك قوله ، عز

---

(١) سورة النجم : آية ٣١ .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) ربما كانت : موسر .

وجـــل : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ [١] .

وأما قولك : فاخبرني عن كيفيتها ؟

فإن الله ، عز وجل ، جعل الروح لجسد الإنسان حياة له ، كالأرض إذا اهتزت بالماء ، وتحركت بالنبات ، كذلك الروح إذا صار في الإنسان ، صار حيًا متحركًا ، إذا امتزج أحدهما بصاحبه .

قال الملحد : وكيف تمتزج الروح بالبدن وقد صار ترابًا ؟!

قال القاسم ، عليه السلام : وكيف يمتزج الماء بالأرض الهامدة ، إذا صارت محله يابسة ؟!

قال الملحد : هو أن تمطر عليها اويجرى فيها ، فتتصل أجزاء الأرض بأجزاء الماء ، بالمشاكلة التي بينهما ، فعندها تهتز وتتحرك .

قال القاسم ، عليه السلام : وكذلك الروح ، ترسل إلى ذلك التراب ، فتماسه وتمازجه ، فحينئذ يحيا الإنسان ، ويتحرك .

الا ترى إلى بدء [٢] خلق الإنسان كيف كان ؟! او ليس تعلم انه كان ترابًا ، فلما جمع الله بينه وبين روحه ، صار إنسانًا ، فاصل خلق الإنسان بذلك على آخره .

أولا تسمع قوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) ﴾ [٣] .

قال الملحد : إنه ليس بين الروح والتراب مشاكله فيما نعرف ؟!

قال القاسم ، عليه السلام : فهل تعلم بين النار والشجر الأخضر مشاكلة ؟!

قال : نعم ، وهى أنها مجموعة من الطبائع الأربع ، إحداهن النار ، وبين ثالثهن [٤] مشاكلة .

---

(١) سورة ص : آية ٢٨ .

(٢) فى الأصل : بدى .

(٣) سورة يس : الآيتان ٧٩ ، ٨٠ .

(٤) فى الأصل : ثالثهن .

قال القاسم ، عليه السلام [1] : الله أكبر ، هل تعلم بين النار ، وثلاثتهن مشاكلة ؟!

قال : لا .

قال القاسم ، عليه السلام : فكيف ، اجتمعن ؟ ، إنه لما جاز أن تجتمع النار مع الماء ، والأرض ، والأهواء [2] بلا مشاكلة بينهن ، جاز للروح مثل ذلك .

قال الملحد عند ذلك : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن كل ماجاء به حق ، وتعست أمةٌ ضلَّتْ عن مثلك .

وأسلمَ وحَسُنَ إسلامُهُ ، وكان يختلِفُ إلى الإمام القاسم ، عليه السلام ، ويتعلم منه شرائع الإسلام .

تمت المناظرة ، والحمد لله رب العالمين ،
وصلى الله على محمد ، خاتم النبيين ،
وعلى أهل بيته .

* * *

---

(١) فى الأصل : قال : لا ، وهو خطأ ، وستأتى فى رد الملحد .
(٢) فى الأصل : الاهواى .

الفهـــرس

رقم الصفحة	الموضـــــوع
٥	– منهـج الرسى ...
٩	– طريقة الرسى فى تناول قضايا الرسالة الأولى
١٥	– ثانيًا فى الرد على الملحد ومناظرته له
٢١	– في وصف المخطوطتين ...
٢٥	– ترجمة القاسم الرسى ...
٢٧	– النص
٢٩	– فى نقد فلاسفة اليونان
٢٩	– الله خلاف المخلوقات ...
٣٠	– وجوب النظر إلى معرفة الخالق ...
٣١	– لِمَ لا يدرك الله بالحسّ أو النفس ؟
٣٢	– قوى النفس ...
٣٥	– التأمل فى الأنفس والآفاق ...
٣٩	– دليل النطفة وأصل الإنسان
٤١	– آيات الله فى خلق الفلك والبحار وما فيها
٤٣	– آيات الله فى خلق السماوات والأرض
٤٤	– ﴿وجعلنا من الماء كل شئ حى﴾ ...
٤٤	– آيات الله فى الجبال ...
٤٧	– آية خلق الجبال ...
٤٨	– آية خلق السماء والنجوم ...
٤٩	– تقرير دليل الصنعة
٥٠	– إبراهيم يستدل على وجود الله
٥١	– دليل التغير والتحول
٥٣	– نوح يدعو قومه لمعرفة الله وعبادته ...
٥٤	– يوسف يستدل على الوحدانية
٥٥	– الاستدلال على الوحدانية بالعقل والنقل

- موسى يستدل على وجود الله ووحدانيته ٥٥
- التأمل والنظر من خصوصيات الإنسان ٥٦
- جميع رسل الله استدلوا على وجود الله ووحدانيته ٥٧
- إرادة الخلق أو الإرادة الكونية ٥٩
- الله يعلم موجوداً واحداً باضطرار ٦٠
- الله غنى غير محتاج ٦٠
- الله الواحد الصمد ٦١
- الأول العظيم العليم ٦١
- الصمد الأحد ٦١
- لا حد ولا نهاية لأسمائه الحسنى ٦٢
- تعريف الله لعباده بالتوفيق والهداية ٦٢
- تنزيه الألهية من كل تجسيم أو تشبيه ٦٣
- الإيمان بالوعد والوعيد ٦٣
- الإيمان بالعدل ٦٤
- فى ذم الحشوية ٦٥
- في نفى الجبر وإثبات الاختيار ٦٦
- نصيحة الإمام لولده بالتقوى والعمل الصالح ٦٦
- اليقين بالله ومصاحبة أهل الطاعة ٦٧
- إيمان الملحد بالله ٦٨
- أرباب الحكمة مؤمنون بالله ويدعون إليه ٦٨
- الإقرار بأن معرفة الله عقلية ٦٨
- حال وصف من جهل الصانع ٦٨
- إبليس والمعصية ٦٩
- الخلود فى الجنة لمن أطاع واتقى ٦٩
- المؤمن وحقيقة الإيمان ٦٩
- صفات المؤمنين فى القرآن ٧١
- صفات أهل النار ٧١

الموضوع	رقم الصفحة
– فى نقد المرجئة	٧٢
– أقسام الحق	٧٤
– ضرورة المعرفة	٧٤
– الولاء البراء	٧٥
– فى وصف حال جهلاء المجبرة	٧٥
– طلب العلم والمعرفة	٧٦
– رسالة « جواب فى إمامة الإمام علىّ »	٧٩
– ثانيًا فى الرد على الملحد	٨٣

* * *